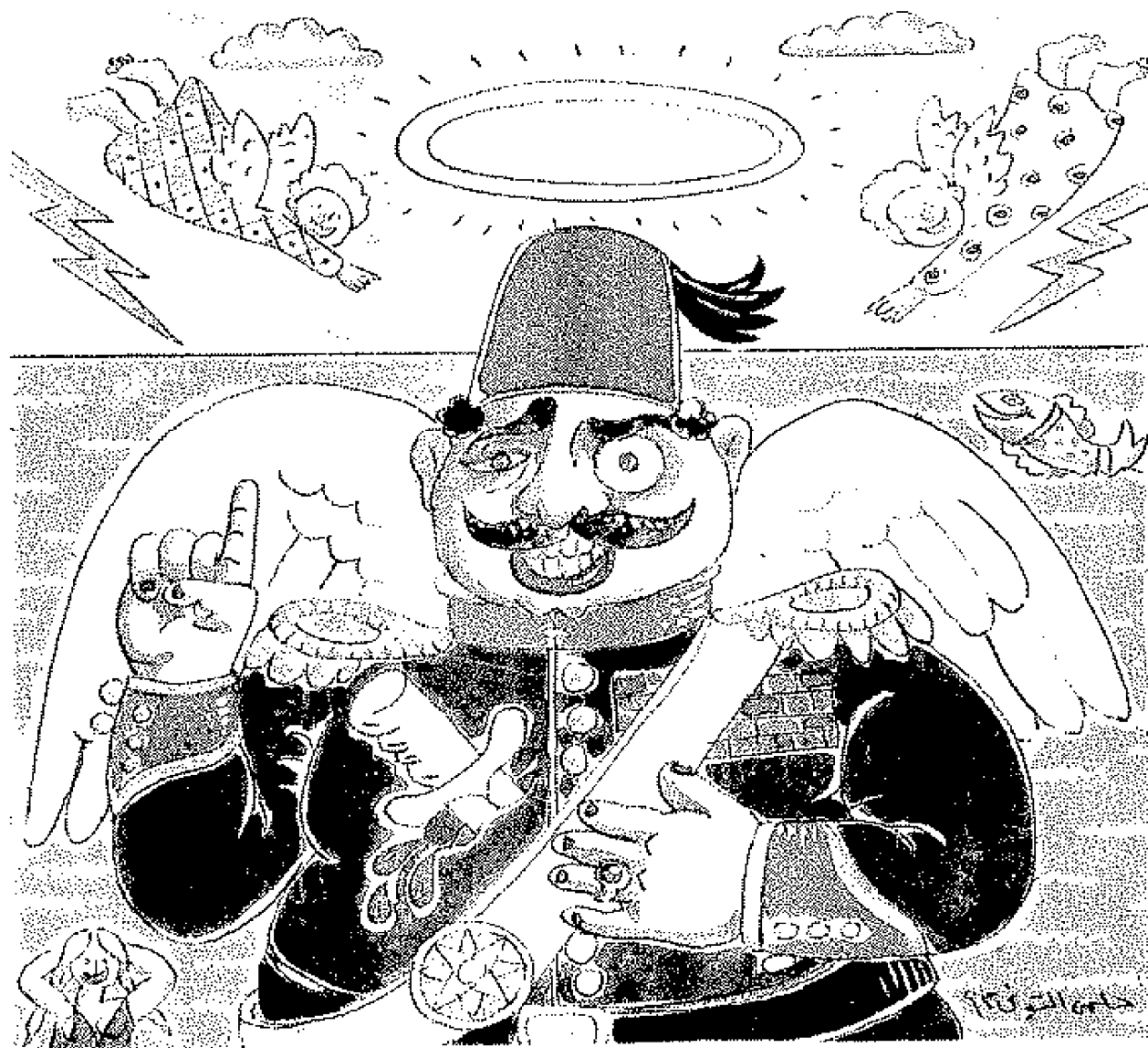


البير قصص يري



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصاص
العالمي

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود فاسم



شعن النسخة

سوريا ١٠ ليرة - لبنان ٦٠ ليرة - الأردن

٢٤ فلس - الكويت ١,٢٥ فلس -

السعودية ١٢ ريالاً - تونس ٢ دينار - المغرب

٢٥ درهما - البحرين ١,٢٠ دينار - الفرجة

١٢ ريالاً - دس / ام طلي ١٢ درهما -

مسقط ١,٢٠ ريال - عرة الصفا القدس ٢

دولار - لندن ١,٥٠ جك

العدد ٥٣٨

اكتوبر ١٩٩٢ • ربيع ثان ١٤١٤ هـ

NO - 538 - OC - 1993

اهداءات ٢٠٠١

أ. صلاح راقب

القاهرة

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٢٥ جنيهاً فى ج . م .
ع تسدد مقدماً نقداً او بحوالة بريدية غير
حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوروبا
وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠
دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة
دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية
بالبريد .

للاشتراك فى الكويت السيد عبدالعال بسيوني زغلول
الصفا من ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤
الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبشرين
سابقاً) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات من ب
٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا
المصور - القاهرة ج م ع

تلكس TELEX 92703 hilal u n

فاكس FAX 3625469

العنف والسخرية

تأليف
البيير قصيرى

ترجمة
محمود قاسم



دار الهلال

هذه هي الترجمة الكامل لرواية
LA VIOLENCE ET L'ADRESION
PAR
ALBERT COSSERY
1964

الغلاف للفنان :
حلمي التسوني

قبل أن تقرأ

المصادفة وحدها هي التي ساقطنا لترجمة بعض روايات البير قصيرى .
وهي بكل المقاييس مصادفة جميلة ، وبالفه الأهمية . فـ «قصيرى» كان
مجهولا تماما قبل ان نترجم له رواية «شحاذون ومعتزون» التي نبهت القارئ
العربى لقيمته، وأهميته . فهو كاتب مصرى فى كل ما كتبه رغم المسافتين
المكانية والزمنية التي فصلت بينه وبين وطنه الذى رحل عنه منذ عام ١٩٤٥ ،
أى منذ قرابة نصف قرن ..

ومما نعتز به ان نقدم واحدة من أهم روايات البير قصيرى احتفالاً
ببلوغه الثمانين من العمر ، وهي باعتراف الكاتب فى خطاب أرسله الى
المترجم روايته الأكثر أهمية فيما كتب .

وقصيرى ، المولد فى مدينة القاهرة ٣ نوفمبر عام ١٩١٣ ، لم يكن
ذنبه أن لغته الاولى التي تعلمها هي الفرنسية ، ولعله حاول أن يعوض ذلك
بأن توغل فى الأحياء الشعبية فعاش فيها سنوات طويلة ، واحتك بالناس فى
أروققتها ، عاش البسطاء فكان من أفضل من عبر عنهم . من هنا جاءت
أهميته ، ليس فقط لأنه كتب عنهم ، ولكن لأنه صنع منهم المفكرين
وأصحاب الرأى والفلاسفة ، وفى رواياته كان فلاسفة الشعب هم أبناءه
وليسوا الكتاب من امثال قصيرى نفسه ، وفى أغلب روايات الكاتب هناك
اصحاب رأى وصناع تمرد لما يدور من حولنا . وهؤلاء ينتمون الى هذه

الطبقات الدنيا ، مثل شخصية عبد العال فى رواية «منزل الموت الاكيد» .. فهو يقف برأيه وفكره ضد صاحب المنزل الذى يُسوّف المستأجرين فى الاصلاح ، حتى تجئ لحظة الخطر .

وفى بعض روايات قصيرى هناك المثقف الذى عليه ان يعتزل المجتمع وليس امامه سوى أن يعيش مع البسطاء ، وفى الاحياء الشعبية ، وهذا المثقف ثورى سلبى فى رواية «شحانون ومعتزون» .. يعيش على الهامش ، يمكنه ان يعمل فى مأخور ، أو يرتاده ، من اجل لحظة متعة ثم يهرب الى المخدرات ، ويظل ليله متيقظا ، وينام طيلة النهار . وقد تماثل هذا فى كل من «جوهري» استاذ التاريخ المستقيل ، و«يكن» الشاعر ، و«الكردى» الموظف . ونحن لا نعرف منبع جذور الاستاذ ، لكن «يكن» يعيش مع أمه الفقيرة المعذمة ، التى تنكفى فى غرفتها على آلة الحياكة من أجل ان تدبر معاشها ، وبعض المطالب الصغيرة لابنها الشاعر الشعبى الدميم الذى عرف السجن ، اما «الكردى» فهو الموظف الذى لا أسرة له ولا جذور ولذا فمن السهل ان يرتبط باستاذ جوهري ، نموذج المفضل .

وهذا الثلاثى موجود بشكل ما فى رواية «العنف والسخرية» التى كتبها قصيرى عام ١٩٦٤ اى بعد رواية «شحانون ومعتزون» بتسع سنوات تقريبا . ورغم أن هناك بعض الاختلافات فى السمات والمكان فى الروايتين ، فان هناك نقاط تشابه واضحة ، ولكنه تشابه شكلى فى المقام الاول ، فاذا كانت رواية «شحانون ومعتزون» تدور فى شوارع منطقة الازهر وما حولها فى أواخر الثلاثينات ، فان احداث رواية «العنف والسخرية» تدور فى مدينة الاسكندرية ، بين حى الجمرك وشارع الكورنيش وأبنية المدينة الشعبية . ويقوم قصيرى هنا بتجريد المدينة لجعلها اى مكان فى العالم ، فهو لا يذكر

اسم الاسكندرية مباشرة ، وان كان قد سمي حى الجمرك بالميناء والكورنيش ومن الواضح ان الكاتب قد صاغ هذه الرواية ، ومدينة الاسكندرية فى ذاكرته بعد ان غادر مصر بحوالى عشرين عاما ، وذلك خلافا لذاكرته مع القاهرة عندما كتب روايته السابقة ، حيث كانت المسافة الزمنية اقل ..

لذا سعى قصيرى الى تجريد المدينة من اسمها ، لكنه لم يطمسها تماما ، وفى هذه المدينة عاش فى الاحياء الشعبية ، فأبطال هذه الرواية يعيشون بكافة مستوياتهم فى اطلال المدينة ، بدءاً من كريم الذى اختار غرفة فوق السطح ، يقيم بها منذ سبعة ايام فقط وهو القادم من حى شعبي ملئ بالحركة والبشر ، ثم خالد عمر الذى تحول الى تاجر كبير، وهو الذى لا يجد متعته إلا مع الفقراء ، ولا يحس بأى سعادة الا بين البسطاء . أما هيكل ، فرغم ان الرواية تشير انه يتصرف كأحد ابناء الطبقة الراقية ، فاننا نفهم من حوارهِ مع خادمه «سرى» انه يعيش فى منطقة شعبية ، يهتم فيها الناس بأن يعرفوا المزيد من الحكايات عن هذا الانيق صاحب البذلة الواحدة.

المكان الوحيد الفخم الذى نراه فى الرواية هو «النادى» الذى يرتاده المحافظ الجديد واعوانه ، وهو من ناحية مساحة المكان الدرامية يعادل المأخور فى رواية «شحاذون ومعتزون» ونعنى هنا بالمساحة الدرامية انه المكان الذى تدور فيه أغلب اجزاء الرواية ، وهو الساحة التى تحدث فيها مواجهة المحافظ من طرف واحد .

ولا شك ان هناك تشابهاً فى العلاقات هنا مع رواية «شحاذون ومعتزون» وقبل ان نشير الى ذلك ، يهمنى الاشارة الى ان المنقف قد تحول الى متمرّد ايجابى وان كان شكل التمرد هنا قد اتخذ شكلاً سلبياً هو السخرية من المحافظ ، فاذا كان جوهر وزملاؤه قد اعتزلوا الحياة العامة ،

وعاشوا على الهامش ، فان متعة السخرية من المحافظ هي عملية ذاتية خاصة بهيكل الذى يشعر بالندم الشديد لأن المحافظ قد أقبل من منصبه ، لانه كان لعبته التى يمارس عليها تمرده . .

«وهيكل» هذا قريب فى بعض صفاته من جوهر ، فهو رجل ينتمى الى طبقة اجتماعية أعلى قياسا الى زملائه ، وهو صاحب رؤية للعالم من حوله ، وهذا هو سبب اعجاب مجموعة من الشباب به ، والتفافهم حوله ، فاذا كان جوهر قد وجد فى الحياة الهامشية التى اختارها سعادته الخاصة ، وهو الاستاذ الجامعى سابقاً الذى اكتشف زيف التاريخ ، فان هيكل اصغر سناً (٣٢ سنة) يعيش شبه معدم ، واذا فاته فى حاجة الى تمويل من خالد عمر ، الثرى الذى يمكنه ان يتاجر حتى فى النمرور .

هذا الـ «هيكل» يعتبر المحرك الرئيسى للتمرد الساخر ، واعجاب كل من كريم وخالد عمر به أشبه بنفس الاعجاب والتقدير الذى كنه كل من «الكردى» «ويكن» لجوهر ، وذلك رغم اختلاف سمات الاربعة ، ف «كريم» شخص هامشى ، يعمل فى صناعة الطائرات الورقية ، وخالد عمر تاجر ثرى لم يكف عن الاختلاط بالبشر ، أما الكردي فهو الموظف الذى يعبر عن تمرده بكلمات رنانة ، وهو شخص مجوف ، يمكن قيادته بسهولة ، أما «يكن» . فهو اسم لشاعر حقيقى عرفه قصيرى وهو فى الرواية عرف السجن ، وعرفه الناس متمرداً ، ولكنه مشغول بالهروب من رجال الشرطة ، وعشق فتاة تحب الموسيقى وتدرسها من طرف واحد. «يكن» هو الشخص الوحيد المبدع فى عالم قصيرى فى هاتين الروايتين ، وكما أشرنا فان صناع هذا العالم هم من البسطاء ، وليسوا من المثقفين أو المبدعين . مثمما حدث فى رواية «منزل الموت الاكيد» .

وهناك شخصيتان مختلفتان تماما فى السمات هما : «نور الدين» ضابط الشرطة الشاذ جنسيا فى رواية «شحانون ومعتزون» .. والذى يكتشف كنوز هذا العالم الهامشى ، فيقرر ان يصبح مواطنا فى مملكة جوهر بعد معرفته أن هناك فلسفة خاصة لهؤلاء الناس ، ثم تزداد حيرته عندما يحاور «يكن» فى غرفته بالفندق حين يحدثه عن القنبلة الذرية المنتظرة .

تكرر هذا الحوار من جديد من خلال الاستجواب الذى تم بين الضابط حاتم وبين كريم فى مبنى المحافظة . فحاتم يميل الى مثل هذا النوع من الحوار مع متمردين من طراز كريم ، ورغم خبرة الضابط الطويلة فى الاستجواب ، فانه يحس بالارتياح حين يحاور كريم ، بل ويدهش حين يراه يُقبل يد المحافظ دليلا على تغييره وتحوله المضاد .. وكأنه يحس ان على كريم ألا يفعل ذلك مهما كانت الاسباب ..

أما الشخصية المقابلة فى رواية «العنف والسخرية» .. فهى المدرس «عرفى» ، وهو رجل يختلف كثيراً عن نور الدين ، فهو يعيش فى عالم من البراءة . تمثله امه المجنونة من طرف ، فالمجنون هو الشخص الوحيد الذى لا يعرف المكر ، والخبث ، أما على الطرف الثانى فهناك تلاميذ مدرسته الصغيرة الذين يأتون للتعليم لديه طوعا ، وهو يعلمهم على طريقته الخاصة ، فالمدرسة مفتوحة ، والاولاد على سجيبتهم ، وهم يأتون إلى المدرسة صيفا فى أثناء العطلة ، واثناء حرارة الجو التى تلهب المدينة ، وهؤلاء الصغار يجب أن يكونوا أطفالا ، فاذا خرج أى منهم من مرحلة الطفولة فقد براعته ، وتعلم الخبث والمكر ، فالكبار تملؤهم الانانية والغباء والقبح والطموح الخائب وانهم جميعاً معذبون بطموحهم ، لذا فهو لا يتوانى عن الاشارة للصغير «زرطة» الذى لم يعد طفلا بأن موعده طرده من المدرسة قد اقترب .. لان على

الأطفال فقط (من سن السادسة حتى سن العاشرة) ان يبقوا هناك ..

وبهمنا ان نشير ايضا ان قصيرى لم يغير وجهة نظره فى هذه الرواية تجاه المرأة فنحن نرى «قمر» عاهرة صغيرة ، وكأنها صورة مكررة من «ارنبه» التى ماتت ، مخنوقة فى رواية «شحاذون ومعتزون» ، و «قمر» هنا عاهرة طيبة ، لعلها تمارس هذه المهنة لأول مرة ، والمأخور هنا هو الكورنيش نفسه، حيث يصطاد الرجال بنات الليل أو العكس ، وفوق هذا الكورنيش التقى كريم بعاهرتة التى جاءت فى أول الرواية .. ثم جاءت مرة أخرى فى نهايتها .. بدت كأنها استعذبت هذه العلاقة .. وهى ليست محترفة مثل «ارنبه» رغم تقارب عمريهما فهى تصدق كريم المفلس حين يطلب منها ان تأخذ ما تريد من مال فى جيبه الخاوى .. فتتردد وتنصرف .. ثم تنتظره على السلم بعد اسابيع من اجل ان تنام فوق سريره ..

والنساء فى هذه الرواية بجميع اعمارهن ، عدا ام عرفتى ، يسلكن سلوكا رديئا وفاحشا ، ابتداء بـ «سعاد» التى تتجسس على ابيها من اجل هيكىل ، وتنقل له الاخبار أولا بأول وتنتهى علاقتهما بمجرد ان تؤدى وطرها المرتبط بمصلحة هيكىل .. اما أصغر النساء وهى الطفلة التى يراها جالسة تنظر اليه وكأنها توده ان يخطفها، فهى ليست فى نظره «طفلة» بل انثى مستعدة ان تهرب مع فارسها رغم انها فى الثامنة ..

أما النموذج الوحيد البريء ، النقى ، فهى ام عرفتى العجوز .. المجنونة التى تعيش من خلال عقلها المفقود فى جو من الفنتازيا الوردية ، والحلم اللازوردى ، الذى يذهب بها بعيداً ، وهى تتخيل نفسها بملابسها الرثة أميرة أحلام جاءت من زمن بعيد ، الى زمن الصبا فى أحد مشاهد الرواية الأكثر تأثيراً فى النفوس .

(١)

بدا النهار معلنا عن قيظ شديد بشكل ، لم يسبق له مثيل.

أحس الشرطى الذى استلم نوبته قبل قليل عند مفترق الطرق الأكثر حيوية فى المدينة، بأنه فريسة لسراب يحيط بعينه ، كان العرق يسبح فوق وجهه العبوس مما جعله أشبه بنائحة وسط جنازة، كان ذلك بالتأكيد سببا لتعبه الظاهرة، دحك عينيه مرات عديدة، وكأنه يأمل فى رؤية أكثر وضوحا من رؤيته الخائبة، ولكن هذه المحاولة البسيطة لم تحقق أى نتائج. هنا أخرج من جيبه منديله ذا المربعات الحمراء والبيضاء، والمصنوع من قماش خشن بادی القذارة، وجفف وجهه بكل حمية. اشرقت ، للحظة قصيرة، رؤيته للعالم، فتولى عينيه ناحية السراب مما صدمه، لأن ما رآه - باعتبار أن عناصر السراب تحدد رؤيته - كان شحاذا. إنه أجمل شحاذا رآه منذ أمد طويل. كان يتخذ ركنا فى عمارة فخمة ذات طراز جميل من البناء الحديث ، فضلا عن أن فى هذه العمارة يوجد بنك ومحل جواهر. أى أن هذه المعالم الميتافيزيقية تتطلب الحماية ، بون هواة ، من مثل هذا الوغد. أعاد المندبل إلى جيبه، وظل يرمش طويلا بعينه، حتى لايفقد رؤيته الجديدة. توجه الشرطى يمينا نحو هذا الوقع، الذى بدت على ملامحه سمات المجرمين. لقد صدرت الأوامر منذ شهر بأنه يجب أن تتخلص المدينة من هؤلاء الملاحين الأوياش الذين يعيشون فى أفخم الأماكن كالدمل فوق قطعة عسلية. إنه هناك وعليه أن يعرف أوامر المحافظ الجديد العديدة - وهو رجل معروف بمبادئه الجريئة -

والأكثر صعوبة عند التنفيذ. كان طموح المحافظ الجديد هو تطهير الشوارع وحمايتها من كل ما يمكن أن يمس شرفها - إنه يتكلم عن الشوارع كأنها شخصيات حية - وأيضا، من بعض الداعرين والباعة المتجولين أمام شرفات المقاهي. وجامعى أعقاب السجائر وخبثاء آخرين أقل أهمية. لقد أعلن حملته ضد الشحاذين، ذلك الجنس المسالم والمتغلغل بشدة فى الأرض. الذى لم ينجح أى من الغزاة قبله فى أن يجنتهم. وكأنه أراد بذلك أن يخلص الصحراء من رمالها.

وبصفته موظف ينتمى لدولة قوية. تقدم الشرطى نحو الشحاذ (بدت الملامح المتجهمة لهذا الأخير شاهدا على حالته بشكل يثير الغيظ)، وبدأ فى اتباع قواعده المألوفة. لكن الشحاذ لم يتصرف أبدا حسب ماسمعه من أسباب، فهو شبه ميت. إنه عجوز ذابل بشكل بشع، ذو لحية رمادية كست كل وجهه تقريبا، الذى اختفى تحت عمامته البالية. وبدت عيناه مغلقتين، واكتست حوافها بهالات سوداء عريضة. مما أضفى عليه ملامح مبهمة وغامضة. انها الملامح المألوفة التى يمكن ملاحظتها فى أى شحاذ. بل أكثر. كان يرتدى اسمالا متعددة الألوان ذات أشكال بالغة البهرجة. والتى تناسب بهلوانا أكثر من شخص على شاكلته. هذا العجوز المنحرف. النازح من أصل منحط، يبدو غارقا فى نوم بليد، لم يبد عليه قط أنه قد إنزعج من تلك الضوضاء الهائجة التى أصدرتها المركبات العديدة القادمة من الطريق الى المفقرق. راح الشرطى، وهو يطلق قذائف الشتائم والسياب، يركل الرجل بقدمه مرة، ثم ركلة مرة ثانية كى يهول جاريا. وأمام هذا الجمود المستقر. استعد أن يكيل له الركلة الثالثة. هنا رأى الشحاذ يتجاوز مكانه ويتهاوى أرضا. ويتصرف بشكل مزرى كأنه بلا حياة، مرت لحظة تصور فيها الشرطى أنه قد قتله فاستبد به رعب، وانتابه احساس يفقد الاتزان. فالشحاذ قد مات، على الأرجح. أصابه الحادث بالتفسيخ، فعليه أن يجعله على قيد الحياة. انحنى نحو العجوز. وأطرق على «عمته». ثم بدأ يهزه بطريقة جامدة ويكل وحشية، كأنه يود أن يهبه الحياة. بدا من الصعب ادراك هذا الموقف الغبى، فجأة شوهدت رأس الشحاذ

العجوز تتخلص من رقبتها بسهولة كأن ساحرا أمسكها وظلت ملتصقة بالعمه. لم يتوقف الشرطى عن هذه فى الفراغ كأنه نصب تذكارى يدمى. أطلقت الجماهير، التى تجمعت منذ قليل حول بطلى هذا المشهد، صرخة مرعبة .. واحتجت على هذا الامتهان بإطلاق شتائم مقذعة موجهة الى الشرطى. الذى بدا وكأنه فقد سيطرته على نفسه، راح ينظر الى جموع الصارخين الذين يعاملونه كقاتل. وكأنه شخص ابتلى بتشنج فى معدته. كان يلزمه بعض الوقت قبل أن يسترد أنفاسه فى هذا الصباح الدامى.

لم يأخذ فى حسبانته أن فى الأمر خدعة. لانه تعامل مع الشحاذ ككائن من لحم ودم وليس دمية صممها فنان واع راح يعرض فنه فى هذه الناحية الراقية وفى نيته أن يحقر من شأن الشرطة، لم يقلل هذا الاكتشاف من غضب الناس. بل زاد من حدته. راحت الجماهير تضحك ساخرة ومستهزئة من هذا الشرطى المنحوس الذى وقع تحت هول المفاجأة. بدا الجمع السعيد وقد اخترقه النصابون كأنهم ريوس نبال، راح البائس يلتقط أنفاسه المتهدجة، فأخذ يطلق بصفارته سلسلة من النداءات الحادة، مستدعيا زملاءه الشجعان من كل ركن. ولكن هذه النداءات ظلت بلا صدى.

تفرق الجميع، بعد أن نالوا من السعادة مايكفيهم النهار بطوله. توجه كل منهم نحو هدفه وهو يعلق على الحادث بطريقته. دائما بنفس الروح اللئيمة التى يمكنها إثارة الأوياش وهى ترى ممثل السلطة وقد أصابته محنة.

(٢)

على مسافة كيلو متر واحد، وفي غرفة تقع فوق سطح عمارة تتكون من ستة أدوار تطل على البحر. كان الشاب كريم، مؤلف هذه الملهاة، أبعد ما يكون عن الشعور بالتفوق تجاه هذا الموقف الصادر من سلطات المحافظ. انه لا يفكر في هذا. فهو الآن ممدد فوق سريره عاريا حتى الجذع وقد انشغلت أصابعه بقصر، خصلة من شعره المتساقط على جبينه، انه يتذكر ببلادة، كسلطان أصابه السأم يسخر من الثروة والمتعة، فيترك كل شيء، ويترك نفسه لهذا السأم الرخو، بدا كأنه يتنوق متعة شهوانية وهو يتأمل خلية الليل التي وقفت ترتدى ملابسها وسط الغرفة. اكتسبت شفتاه بابتسامة دامت للحظات. انه يحب امتلاك غانيات نوات مؤخرات متموجة مثيرة. تتأرجح أمام عينيه من أجل إثارة متعته الخاصة، لا يميل للمخلوقات البائسات (التقطها بالامس في الشارع) لم يبد أن سحرها المتواضع يخفى وراءه أى غموض. هذه البهجة البسيطة التي حاول أن يخلقها بموقفه الضعيف والحساس، أخفت حالة من التوتر الشديد، شعر بها منذ أن استيقظ. وكأنه على نفس الحال دائما. يتصرف كريم هكذا يوما كى ينجح فيما يخططه لاكتساب ود عشيقاته العابرات، فان نجاح هذا التخطيط - أو بعضه - لا يترك أبداً فرصة للشفقة ولا لخفقان القلوب. لقد اقتربت الآن اللحظة التي عليه أن يكشف فيها لعبته.

لم يكن الشاب كريم فى أحسن حالاته، ورغم أنه متعدد التجارب فانه انسان قليل الحظ. يعرف هذه العاهرة الصغيرة التي صاحبها الى بيته بعد أن

وضع الشحاذ المزيف عند مفترق الطرق. لن تثير أى متاعب. فهي لا تبدو فتاة فضائح. حتى لو أغضبها. لكن هذا لا يهم كريم. فليست لديه النية فى أن يراها مرة أخرى. ثم أن الفشل المتوقع للمهاته لا يقلقه الا بشكل جزئى. فالامور تسير بطريقة أو بأخرى. وما يوده حقا هو التخلص منها على وجه السرعة. بدأت الطريقة البطيئة التى ترتدى بها ملابسها فى اغاظته. تعجل أن يراها تذهب وأن يبقى وحده. فقد كفت الفتاة عن إثارتته. هناك حوادث أكثر عنفا وغرابة - مما يحدث عادة - عليها أن تظهر فوق سطح الارض . وهو يريد أن يجرب طعم الوحدة. أو يكون فى صحبة زملاء يمكن أن يفهمهم. لقد شارك امرأة المتعة. انها تنسم برقة مما لا تتناسب معه. ان هؤلاء الاناث بالتاكيد خلقن لهذا النوع من المزاج الكامن فى درب الشيطان. انهن لا يستطعن قط إدراك القيمة الحقيقية لكل غبايات الطبيعة للعين ، على سبيل المثال، فيما يتعلق بشخص مهم كالوزير. فإنهن يبدون جادات فى كافة الأمور الهزلية الخاصة بطفافة السلطة. وهذه مثل الأخريات، فلم يعد لكريم مايقوله لها.

لم يكف عن تأملها، وهى ترتدى ملابسها، خصها بإبتسامته كأنه سلطان أصابه السأم، فالفتاة الآن ترتدى جوربها، ويبدو وجهها المشرئب. وعنقها الطويل، ثار كريم فى صمت، وبدا له أنها تنتظر اليه بنوع من العتاب. هل تشك فى شىء؟ أخيرا ارتدت فستانها وبدت متأهبة.

لقد حانت لحظة المكاشفة، اكتسى كريم بمظهر يليق بسيد كريم اعتاد السخاء، وكأنه ينزه نفسه عن أى مساومة، وهو يقول:

- عزيزتى زوزو ! قبل أن تذهبنى، مدى يدك فى جيب سترتى وخذى ماتريدين.

ظلت الفتاة بلا حركة. اعلمها تبحث عن السترة. ولكنها سرعان ما أخفضت عينيها وكأن حالة من الخجل أصابتها. انها فتاة صغيرة، ذات وجه طفولى، وملامح مهيبة ومؤثرة. أدرك بلا أى معاناة وبأسلوبها المؤثر، أنها مستجدة فى مهنتها. ترتدى فستانا من القطن المطبوع . ويتحفظها المتواضع ومساحيقها

الخفيفة، بدت أشبه بتلميذة منها كغانية. بدت لها مغامراتها مثيرة للحنن، فبالامس هربت من شرطة المحافظ عندما التقى بها كريم ودعاها - متبعا أسلوبه المتخايل المألوف - لقضاء الليلة في شقته. حقا إن كريم قد كسب بهذا النداء اللينق رضاها. وكأنه يعطيها الامتياز بأن يصحبها الى بيته، تركت الفتاة نفسها لهذا الاغراء، وهى التى لم يكن لديها أى خيار.

ظلت صامتة مترددة، إنها لحظة مثيرة للشفقة. كانت سترة كريم معلقة فوق طرف مقعد على مسافة خطوات من الفتاة، لكن لسوء الحظ فإن الجيوب تقريبا فارغة. فالنقود التى بها لا تكفى لإطعام عصفور، ولا مخلوق ضامر. راح كريم يتأمل الفتاة، وقد أصبح فريسة لشك يتنامى كل ثانية أو كل لحظة وراء أخرى. فكيف ستتصرف ؟ هل ستقترب من المقعد وتفتش جيوب السترة ؟ لم تجرؤ الغانية أن تنطق بكلمة ! لم يعاملها كأنها أميرة ! ألم يكن عليها أن تصدق المشاعر السامية التى ظل يعاملها بها طوال ليلة حب لا تنتهى. تذكر كريم تأوهاتنا النارية المليئة بالمغالاة لدرجة جعلته يطلب منها الزواج، لم يدرك أن شيئا ما يعمل فيها. هل تكدرت مشاعرها الآن وتبعا لحركاتها السافلة يمكنها أن تهدم نموذجا مثاليا بدا لتوه؟ لاشك أن هذا سيكون أمرا غيبيا بالنسبة لها.

ساد الصمت الرهيب. استعد كريم لفتح فمه ليقول لها بعض الكلمات. حاول أن ينقذ الموقف بوسائل أخرى، إلا أن الفتاة تكلمت أخيرا:
- أه . ! أشكرك لاداع.

لقد كسب الرهان. فالآن يمكن لكريم أن يلح بلا مخاطرة. مدد جسمه، وغمس رأسه فى الوسادة ثم تنأى فى نشوة:

- لكن أنا أصر. هيا، خذى ماتودين. وإلا غضبت.

قالت مرة أخرى. . الآن لست فى حاجة لشيء.

بدا كريم مغتاظا لهذا الرفض. وانتابته حساسية:

- زوزو، انت تؤلميننى. أعتقد أننا لسنا بغرباء عن بعض. فكل ما معى لك،

الظاهر أنك لم تحبينى ؟

اعتذرت الفتاة كأنها قد تنبّهت للخطأ الذى ارتكبته تجاه الشاب الصغير. -
لا أريد أن أهينك، لكن من المستحيل أن أقبل نقودك، فقد كنت لطيفا معى.

أجاب كريم الذى نجحت كلماته الاخيرة فى تنفيذ خطته:

- بكل بساطة، فالحب هو الذى جعلنى اتصرف هكذا. لا أريد أن أجبرك،
تصرفى كما تشائين فأنت فى بيتك، فأنا اعتبرك كزوجتى.

ارتسمت عليها ابتسامة حزينة، ربما بسبب تضخم هذه الاكثوية وربما
لأنها أحست باستحالة أن تكون زوجته. وبدون أن تتنطق بكلمة، أمسكت حقيبة
يدها التى كانت فوق المائدة، وقررت أن تنصرف، لقد نجح كريم فى أن يجعلها
تحس أنها شابة محترمة، وإلى حد ما تلاشى مظهرها الضائع، يمكن أن تكون
ابتسامتها متقلبة، فهي المرة الاولى التى تنظر إليه بعد ليلة الحب الطويلة ليس
عبر ستار الرغبة، ولكن كمخلوق آدمى مطارد، لا مأوى له، هذه المعايضة جعلته من
الصعب أن ينسى موقفه كسلطان متوج، يحب الغانيات نوات المؤخرات الرخوات
والشهوانية غير البادية .

لم يبق الآن فى الغرفة سوى مشهد متوتر وحقيقى، فبلا شك، فهذه الفتاة
تخفى بداخلها مأساة. لم ينتظر كريم هذا الهجوم اللئيم من القدر، فما فعله بدا
له أمرا وحشيا، تسأل: «ياله من أمر محزن، فما أنذا فريسة للندم».

حاول أن يهرب من هذا الضعف، لكن الشفقة التى أحسها بدأت تتعمق فى
أحشائه، من الضرورى أن يفعل شيئا ما لحساب الفتاة التى أصبحت مفروضة
عليه، عليه أن يساعدها بأى طريقة، وألا يتركها ترحل هكذا، لكن كيف ؟

استند على كوعه، وألقى نظرة مليئة بالأمل على سترته، كأنه يفكر فى
اكتشاف كنز منسى داخل الجيوب، وفى اضطرابه انتظر حدوث معجزة، فكر
بسرعة فى كل ما يمكنه أن يقدمه لها بعيدا عن النقود، كى يبرهن لها عن رفته،
وأخيرا، اعتقد أنه وجده بكل بساطة. سوف يسألها عن اسمها، ف «زوزو» هو
الاسم الذى أعطاه كريم لها اثناء كل غزوات الليل، ولأسباب تسهيلية، وأيضا حتى
لا يحتفظ منها بأى ذكرى محددة، حسنا. هذه الفتاة تتصرف بشكل مختلف، كان
عليه أن يبكى عندما انتابته الفكرة أنها تعمدت ألا يعرف اسمها، فجأة شكلت

معرفة هذا الاسم بالنسبة له غموضا بالغ الأهمية.

سأل برقة متناهية فى صوته

— ما اسمك ؟

ترددت قبل أن ترد . أحست أنها قد صدمت بهذا الاهتمام المفاجئ . قالت .

— اسمى قمر .

— حسنا يا قمر . أنا ممنون لمعرفتك . مرى على قريباً . سوف أعتد عليك .

قالت والفرحة تشع فى عينيها : حقا ؟ ألن أزعجك ؟

— أبدا . على العكس . فأنت هنا كائنك فى بيتك . ألم أخبرك بذلك ؟

— كم أنا سعيدة للغاية . سأذهب الآن .

كان عليه أن يقوم . ويذهب إليها ويقبلها . ولكن كريم تردد أن يتورط أكثر فى هذه المغامرة . فهذه الفتاة قد حطمت قلبه قليلا . ويمكنها أن تجعله مهووسا . لم يتحرك . قالت وهو لا يزال نائما :

— سلام عليكم .

وقبل أن ترحل . انتابها احساس انساني نادر كى تشكره على الليلة التى قضتها تحت سقفه . لدرجة اعتقد عند سماعها أنها بالغة الشرف والكرم .

تخيل كريم أنها قد خمنت . وهى فى حيرة . أن كلماتها الخائرة تقطر سخرية بشكل بشع . ولكن هذا غير محتمل بالمرة . فكل شىء فى داخل الفتاة الصغيرة يتنفس بجلاء وشرف . أحس كريم بالخجل لأنه أفسد طهارتها . استبد به الندم فقد تملكته على طريقته حتى الأعماق . ووعى لذلك جيدا .

فتحت قمر الباب وظهر السطح الفارق فى الشمس . انفتح الباب الى داخل الحجرة . قال كريم :

— دعى الباب مفتوحا .

وبينما هو يسمع الباب الخارجى ينغلق على الفتاة . أحس كريم بأنه يتخلص من عبء ثقيل . أخيرا يمكنه أن يتنفس على راحتة قفز من السرير . ثم راح يضيق حبل سروال بيجامته . وخرج الى السطح . انه يسكن هذه الغرفة منذ حوالى

اسبوع حيث يتمتع بمنظر البحر الرائع، انه يختلف تماما عن مسكنه القديم المظلم الذى كان بلا هواء ، والذى يقع فى أكواخ الأحياء الفقيرة. يستيقظ كل صباح تنقابه مشاعر الفرحة العارمة . وأول شيء يفعله هو الخروج الى السطح، كى يتأمل المنظر الذى يصيبه بمشاعر متميزة. فهو لم يشبع من مثل هذه الاطروفة. حتى قراءة الصحيفة التى تعتبر حتى الآن العنصر الاساسى لمتعة - حول وقائع عالم خصب مليء بكل أنواع الجنون - أصبحت بعد هذه الدورة من الأمور المألوفة. وفى طباقه السادس يبدو كأنه مكتشف فى أعالي الجبال ، أطل كريم على المدينة المتهالكة المباني. حيث تزدهر حشود الأغنياء والأوغاد. هذا المنظر العام لمجتمع ينحاز أكثر للصوى الدمويين الذين يسببون له معاناة لا حدود لها. فضلا أنه يعتبر أن مسكنه الجديد يجعله أشبه بمراقب حيث يمكن لمزاجه أن ينشرح .

استند على حاجز الطوب الاحمر الذى يحف السطح وتأمل البحر .. حتى تلك السحب البعيدة التى تسد الافق. كان البحر مسطحا ولامعا كالمرآة. وعلى يمينه ويساره تمددت المدينة. وهى ترسم بعماراتها الحديثة ذات الألوان الواضحة، الصورة الخادعة لمدينة مزدهرة. لايمكن للقادم من عرض البحر، أن يشك أن خلف هذه الواجهة الشديدة اللعان تقع الأحياء الشعبية باكواخها القذرة وقمامتها الوفيرة. أحس كريم بحرارة الشمس فوق جذعه العارى، فتنفس بعمق. ثم فرد قامته. ونظر أسفله الى بقايا الكورنيش المسفلت الذى يمتد على الشاطئ بطول عدة كيلو مترات . انه طريق واسع مزنوج. رصيف مصنوع للمتزهين الذين يأتون فى المساء باحثين عن نسيمات البحر. وقد طلى بطبقة من الجبس، تعبر سيارات عديدة قادمة من دروب متشابهة يراها من أعلى، أشبه بألعاب ميكانيكية. وأحيانا تتجسد سعادة كريم عندما يبدو أحيانا حوذى نائم فى عربته الحنطور كأنه العوية بشرية فى هذه المطاردة الجهنمية نحو العدم، لكن من النادر أن نرى انسانا فى راحة. فالشرطة تطارد الكسالى والعاطلين، تعاملهم كمجرمين، إنها الحضارة، طراز من الحياة السهلة الطيبة، عليها أن تختفى. ففوق الرصيف المخصص للمتزهين. يمشى بعض المارة المتعجلين للوصول الى حيث لا يعلم. يتحركون بخطى سريعة. هناك شيء من التغيير فى المنظر. فهو لم يلحظ أى أثر لصعوك نائم فى الشمس ، ولا أى جسد متمدد أو حتى منحنى فوق الارض . لقد أصبحت

الشحاذاة عملا سريا . أين إذن سيقف الشحاذون ؟ يمكنهم أن يعملوا الآن في أحد المصانع.

يا للحنن ! فان غياب الشحاذين من طريق الكورنيش دليل عصر جديد. لقد نجح المحافظ الجاهل، بأفكاره العبثية، في تغيير المظهر الأساسى للمدينة. تساعل كريم عمُ أصاب الدمية التى وضعها بالأمس فى وسط الحى الإفرنجى، هل اكتشفها أحد ؟ أحس بالأسف أنه لم يستطع أن يحضر لحظة قبض الشرطى على الشحاذ المزيف. لقد كانت تلك فرصة المزاح. هل يمكنه أن يثير بعض الصدى فى الصحافة. ذلك ليس مؤكدا. فكل الصحف فى خدمة المحافظ. ولا تجرؤ أبدا على نشر خبر تجعل منه سخرية للأطفال الصغار. لا يهم. فالمحافظ سوف يعلم بهذه المحاولة التى تحولت الى ظاهرة سخيفة. فرأسه المنفرجة الزاوية سوف تنفجر . لن ينتظر تأكيدا ليكون محل هجوم بطريقة غير عملية. إنه سعيد حين يقبض على بعض أعضاء الحزب الثورى السرى الذى سبب لسنوات بعض المتاعب للمحافظ الذى فى السلطة. والذى عليه التخلص من كل الدعاية المضادة لمصالحه. لم يعرف سوى نوع واحد من الأفكار المدمرة: أفراد متشددين فى حقدهم. يمجنون أعمالهم. ومستعدين أن يموتوا من أجل سيادة القانون والعدالة ، باختصار فإن الناس الذين يأخذون الامر بجدية مثله. يمكنهم أن يعملوا على تفريخ المدينة بنوع مجهول من الثوار، ثوار ماكربين أصحاب مزاج عال. ويعتبرونه أشبه بدمية - هو وأمثاله فى أنحاء العالم - من أجل ألا تكون أفعاله وحركاته سوى تشنجات عصبية وزفرات بدت لكريم أشبه بغباءات كبيرة. وجد نفسه مصابا بحالة من العصيان لايعرف أى أسلوب يسلك. رغم أن الشحاذ المزيف صنع ملهاة لاتنقصها الدعاية. ليست سوى أمر تافه مقارنة بالآلة التى لا حد لها من الخبل. كان كريم يعرف أن صديقه ورقيقه الحميم «هيكل» يتمتع بالدقة والكفاءة وأنه يمكنه أن يحطم سلطة المحافظ للأبد.

ظل هيكل شخصا غامضا فيما يتعلق بتفاصيل هذه المؤامرة الساخرة دافعه فى ذلك هو اقتراب الكفاح الشرس الذى عزم هيكل أن يعطته. لقد قرر هيكل أن يقابل خالد عمر بعد أن كلفه برسالة لهذا الاخير . . كى يحدد له موعدا هذا

المساء. هذا الموعد يعنى أن «هيكل» توصل الى خطة هجومية. وأنه فى حاجة الى دعم مادى كى يجعلها قابلة للتنفيذ. فخالد عمر هو الشخص الذى يمكن للنقود ورغد العيش أن يجلبا له فكرة خفية. إذن، ففى هذا المساء سيعرض هيكل مشروعه. وسيتم اللقاء فى مقهى بالحى الافرنجى. أصر «هيكل» أن يقابل التاجر وجها لوجه. - بلا شك - فهو يريد أن يقلل من نفوذه، كان كريم واثقا من نتيجة هذا اللقاء، فسوف يقع خالد عمر بالتاكيد تحت سحر هيكل الذى لايقاوم، فهيكل شخص يختلف عن كل الشخصيات التى قابلها فى حياته.

لايزال الوقت مبكرا للذهاب لمقابلة التاجر. فهو لا يذهب الى مكتبه إلا فى ساعة متأخرة من النهار، وبينما هو ينتظر، انحنى كريم على جدار السطح، وراح يفكر فى المارة المتزايدة التى أصابته هو وأصدقائه بسبب المحافظ. فجأة هبت عليه ذكرى العاهرة الصغيرة وكأنها قد ولدت قصة حب كبيرة، استطاعت أن تملكه. وعد نفسه أنه لو رآها مرة أخرى فى الليلة القادمة، فسوف يعطيها بعض النقود وهدية ما، وما أن لمعت هذه الفكرة المؤثرة حتى عاد الى غرفته وتوجه نحو ركن تتكوى فيه طائرات ورقية من كافة المقاسات والألوان، بعضها لم يكتمل تصنيعه بعد. انها هواية كريم المفضلة، منذ عدة أشهر، وهو يصنع طائرات ورقية يبيعها الى تاجر حلوى واخشاب شيش - والذى يبيعها بدوره الى زبائنه الأطفال - فى حانوته بالشارع المجاور. فى زمن الطائرات الحقيقية، وجد كريم أنه من الرائع أن يرد بسرعة على تقدم العالم المنحوس المصاب بالهذيان لكل ما هو ألى. فبدأ يصنع طائرات ورقية، كالعاب رائعة وتافهة، فيهلل بفرحة غامرة حين يرى فى السماء هذه الأشياء الخفيفة الهادئة التى تسخر من المركبات الثقيلة الطائرة، والآلات الضخمة التى تقتقد الشاعرية.

تأمل الركام لحظة. ثم اخرج واحدة، لاتزال فى حالة هيكلية. أفرع من البوص المقصوص مثبت فى وسطها بواسطة خيوط تصنيع طائرة ورقية عملاقة، أمسك مقصا، وبعض لقائف من الأوراق الملونة، وطبق فى داخله تمتزج المياه بالدقيق كى يحصل على لصق ثابت. عاد الى السطح ومعه العديد من الأدوات،

ووضع فوق الأرض الصلبة هيكل الطائرة الورقية. انحنى. وبدأ فى العمل بنفس الجدية والانتهاك كأنه عالم يبنى صاروخا يستطيع السفر الى القمر.

وبينما هو غارق فى عمله، لم ينتبه كريم الى تطفل شخص فوق السطح. وقف وقد بدا مثيرا للرتاء أمام السلم، يحاول بلا جدوى أن يلتقط أنفاسه. يحمل هذا الشخص الشاحب واللاهث، الذى فى الخمسينات من عمره ملفا تحت ذراعه ويمسك بيده مظلة مغلقة، استند عليها وهو يترنح. راح يلهث للحظة، ثم هزته دفعة من السعال فشلت فى خنقه مرات عديدة، رفع كريم رأسه على أثر سماعه السعال الأجش وراح ينظر فى غباء وخلسة. فهذا الرجل ينظر اليه وكأنه وجد شخصا يعرفه وسط حشد من الناس، دون أن يسبب له أى متعة بالمرّة.

— هل أنت كريم ؟

— أجل ، أنا ، ماذا هناك ؟

قال الرجل : شرطة . أنا مكلف بمهمة خاصة بك.

أوماً كريم بحركة واحدة دون أن يبعد عينيه عن الرجل . إنه شرطى حقيقى فى هذا القبط يرتدى ملابس وكأته وسط برودة شتاء قارس : بدلة صوفية سميكة داكنة ، وتلفيفة من الصوف ملفوفة حول الرقبة. بدا وجهه النحيف مهيبا ومهموما ، ولكنه غير جاف. يكسوه نوع من التجاعيد يمكن أن تميزها لدى بعض المرضى المحكوم عليهم بالموت قبل الأوان . بدا على شفا الانهيار . فقد شكلت الأنوار الستة التى اضطر أن يصعد بها خطرا حقيقيا بالنسبة لسنة. لقد منعت الشمس العمياء التى غمرت السطح من الرؤية جيدا .. فتح مظلته، وتحت ظلها تصفح الشاب طويلا. هذا الموقف المضحك كان له الأثر المبهج على كريم ، فتلاشت مخاوفه ثم تقدم نحو الشرطى . وسأله:

— فيم تتعلق هذه المهمة ؟

— هل يمكن أن أدخل غرفتك، أود أن أجلس فلدى ما أقوله.

قال كريم : إنه لشرف . تفضل.

أغلق الشرطى مظلته ودخل الغرفة يتبعه كريم وهو يتساعل عن الاسباب

التي وراء هذه المهمة، فمنذ زمن طويل لم يتعامل مع الشرطة، لعلهم عرفوا بسرعة أنه صاحب الشحاذ المزيف، إنه أمر غير قابل للنقاش، ترك نفسه للقدر، إنه لأمر معقول، بدا مظهر الشرطي المصاب بالربو وداء الصدر كأنه فى حالة أفضل.

لم يفقد كريم السلوك المهذب :

– هل تتفضل سعادتك وتجلس ! هل أجرؤ أن اعتذر لك عن فوضى المكان،
كدت أن أرتبه.

– لاتهتم . فليست هذه زيارة ضيافة.

جلس الشرطي، وهو لا يزال يلهث. ولكن بشكل ضعيف، أمسك كريم سترته، وراح يتذكر أنه كان عليه أن يتصرف بوقار أمام ممثل القانون. هل عليه أن يموت ويختنق بالربو، فمنذ أن تعرف على هيك، أو منذ أن بدت له الحياة فى ثوب ساخر مليئة بالفضب الصاخب، اعتزل كريم وأقام فى بيته بكل كرامة بعيدا عن رعا ع البشر الذين تمسكو بقيود السلطة، عليه أن يتصرف كغيبى، وأن يبدو أكثر غباء منهم. أنها الطريقة الوحيدة لانتبأهم، لقد أخبره أن الكرامة ليس لها ثمن سوى بين البشر الاسوياء الذين يكونون فيما بينهم مشاعر احترام متبادلة، ويعلمون أن إحتفاء المرء بكرامته أمام شرطى أو ممثل للسلطة، لايعنى أبدا شيئا، هكذا حدثه هيك وهو يحاول أن يحتفظ بكرامته أمام كلب مسعور، فالسلوك الذكى الوحيد أمام كلب مسعور، هو الهرب، أما بالنسبة للعديد من البشر، فى هذا العالم المتسع، فعليهم أن يتصرفوا بكرامة، لأنهم مختلفون.

زرد كريم سترته، ثم جلس وقال بمظهر شخص يتوقع حديثا على جانب كبير من الأهمية :

- هائا أسمعك.

فتح الشرطى الغربى ملفه، وسحب ورقة، وبدا كأنه يتفحصها .

- هل تسكن هنا منذ وقت طويل ؟

- اسبوع تقريبا . كما ترى لقد أقمت هنا وأنوى تأثيث هذه الغرفة بطريقة حديثة. أنا فى إنتظار نجار ولكن لسوء الحظ، لقد ماتت زوجته لتوها، وتركنى هكذا . سوف أستدعى نجارا آخر.

أطلق الشرطى تنهيدة، وهز رأسه، وكأن من الصعب عليه أن يهدم هذا الوهم الجميل، وقال.

- من الأفضل أن تهجر هذا المسكن.

- لماذا ؟

- لأنك لايمكنك أن تستمر فى السكن هنا . فهذا ممنوع.

- كيف ممنوع ؟

إنكمشت عينا الشرطى . ونظر الى كريم وكأنه سييوح له بسر مرعب :

- هل تعرف ياعزيزى أن هذه العمارة تطل على طريق حيوى !

رغم أن هذا الاعلان قد أثار طبيعته الساخرة، فإن كريم ظل رابط الجأش لم ترتسم أى ابتسامة على وجهه، بل على العكس، بدا متأثرا بشدة لما سمعه. ويلهجة نادرة، لمواطن مهتم يشئون البلاد رد :

- الكورنيش طريق حيوى ! لم أكن أعرف، سعادتك ! بشرفى، لم أكن

أعرف .

- حسنا، هائا أعرفك، إعرف أن الكورنيش طريق حيوى من الطراز الأول

ويسلك هذا الطريق يوميا رجال سياسة، وسفراء الدول الأجنبية، وعسكريون مهمون.

قال كريم : حقا . ولكنى لا أدرى ما علاقتى بهذا ؟

- ألا ترى ذلك حقا ؟

- لا ، والله ! لا أرى، أحاول أن أجتهد ولا أعرف.

- إذن سأضطر أن أعلمك ، فأنت رجل خطير.

- أنا ! ماذا يمكنني ؟

أضاف الشرطى : لا شيء الآن . لا يمنع أنك فى القائمة السوداء. ونحن مهتمون بك، أليس كذلك ؟

- فعلا، ولا انكره، ولكن ذلك كان من سنوات، إبان الحكومة القديمة.

هز الشرطى رأسه من جديد . تظاهر أنه يمتص شفثيه ، وكأن مثل هذه الأمور أقل غباء، حقا، كم يتسم هؤلاء الثوار بسذاجة واضحة، قال :

- لو لم تكن تحب الحكومة القديمة، فلا يوجد سبب كى تحب الحكومة الحالية. فنحن نعرف أصحاب الرعوس العنيدة من أمثالك.

أثارت هذه التصريحات المعلنة ضمنيا دهشته، وأصابته بالصمت للحظة، فلماذا يرد على هذا ؟ لم يترك نفسه لهذا الشرطى المسكين كى ينهكه بأموره الخارقة، عليه إذن أن يمسك زمام الأمور.

أحتج بحسن نية :

- أى خطأ، سعادتك ! أنا لا أحب الحكومة ! يجب أن يكون المرء أعمى حتى لا يحبها، أنظر الى، هل أنا أعمى ؟ أقول لك بكل بساطة أننى أعتبر الحكومة الحالية مثل أبى، أى دليل يمكن أن أقدمه لك لأؤكد احترامى لها ؟

- بالمناسبة ، أين أبوك ؟

رد كريم : لقد مات ، فأنا يتيم.

ورغم أن هذه المحاولة بدت له يائسة، ورغم أنه يريد أن يكشف دوره ككائن تائب. فإن كريم وجد نفسه على وشك البكاء، وضع جبهته بين يديه، وبدأ فى الزنهة وهو يجهد، ينطق بكلمات مكسورة بأنه قد جنى عليه بأسه وأحزانه منذ طفولته الرقيقة. لكن هذا المجهود الذى بذله لم يقنع الشرطى تماما، بدا مهزوزا.

فظل صامتا، منتظرا أن يخفف الألم الذى جاء فى غير وقته، ولكن كريم صدمه بضربة قدرية حين كلمه عن أمه المسكينة التى ماتت أثر اصابتها بمرض خطير (يبدو أنه كان «ربو») والذى وصف أعراضه كأنه طبيب متخصص.

وتبعاً لهذا الوصف، اكتست عينا الشرطى بظل من الحزن، وبدأت ملامحه تمتلئ بتعبيرات حزينة مكتتبة لقد ظل يمارس مهنته ثلاثين عاماً ولم يعد لديه ما يتعلمه من كوارث القدر. لقد ألفت به شكوكه عن جدوى الاشياء فى الدرك الاسفل، فى مهنة يكون الجنون والقبح هما الفضيلتان الوحيدتان ، فضلا عن مشاعر انسانية عميقة تجمعها مع اخوانه البشر. هذا الشاب يمكن أن يكون إبنة، فقد جرب المعاناة المزيفة والحقيقية :

– مم تعيش ؟ هل تعمل ؟

رد كريم : طبعاً ، أنا صنايعى.

– ماذا تصنع ؟

– أصنع طائرات ورقية.

– أنت تسخر منى.

– كيف أجرو على ذلك، يا صاحب السعادة ! هذه هى الحقيقة خالصة.

ليس هذا شيئاً غريباً ، سوف أريك نماذج مم أصنع.

وقام بكل حيوية واقترب من ركن الغرفة التى رتب فيها طائراته الورقية.

وأمسك اثنتين – واحدة بكل يد – ذاتا أشكال وألوان مختلفة ثم رفعهما عالياً، كى يمكن للشرطى أن يعجب بها :

– ها هى ، أنظر الى هذه الطائرات الورقية ، فأنا الذى صنعتها. لا يوجد

لها مثيل، حتى فى الخارج . لقد طلبت منى فى أنحاء العالم. وسوف أضطر قريباً الى طلب مساعدة.

تأمل الشرطى - الذى لم يشأ أن يصدق هذه القصة - الطائرتين الورقيتين

التي لوح بهما أمام عينيه كأشياء خارجة لتوها من أحلام. ورغم رغبته أن يكتب محضراً مفصلاً، فإنه رأى استحالة أن يشير فيه إلى صناعة الطائرات الورقية

كعمل شريف، ومع ذلك تساعل عن هذه الطائرات، هناك بعض الناس يصنعونها،
وهى ليست نتاج الطبيعة، ولكن كيف يبلغ رؤسائه أن ثوريا قديما، يملك روح
التدمير انتهى أمره إلى هذا النوع من العمل، دون أن يثير أى شبهة ؟ قال :
- ليس من الجدية أن أذكر هذا فى محضرى، وإلا بدوت كأثنى أسخر من
السلطات.

- ومع ذلك، فليس هناك شىء غير ذلك، إنه عمل متواضع بالتأكيد، ولكنه
يبعث البهجة فى قلوب الأطفال، آلاف الأطفال الذين يتسلون بهذه الطائرات
الورقية، كيف يمكنك أن تقترب منى، سعادتك، وأن تجعلنى أهتم بأن أصنع بهجة
الأطفال ؟ ليس الأطفال سوى أبطال المستقبل، وأنا أعرف أنه بالنسبة لأصول قديم
فإن هذه الطائرات الورقية تعد من اعمال الطفولة، عندما نتعمق فى المشكلة،
سنلاحظ أن الأطفال الذين يستخدمونها، ينشغلون فى هذه الرياضة السلمية، إنه
عمل وطنى، وظاهرة اجتماعية صحية ستصنع منهم مواطنين صالحين قريبا،
عليهم أن يحترموا القانون ، لعلك أدركت بسهولة اننى أعمل لمصلحة الوطن.

هذه الخطبة الطويلة سببت الكثير من الأكم للشرطى. فقد أدهشه هذا
الشاب كثيرا. فلو لم يكن ثوريا، فهو على الأقل مجنون، فكر الشرطى فى
محضره، فقد أدخله الشاب فى متاعب لا حصر لها، قال كريم بعد صمت : إذا
سمحت لى..

- تفضل،

- هل لديك أطفال ؟

ها هو يدخله فى مسائل خاصة، الآن، هل سوف يسأله ان كانت زوجته
جميلة أم لا ؟.

- نعم، لدى أطفال ، ليحفظك الله !

- أى أعمار يبلغون ؟

- الكبير فى الثالثة عشرة

— يا للصدفة العجيبة ! هل تسمح لى أن أقدم له احدى الطائرات سيكون هذا بالنسبة لى مصدر شرف وفرحة.

قاوم الشرطة، ولكن بكل أدب، وبلا مباهاة.

— إذا لم أكن قد تجاوزت الحد ؟ فهذه محاولة لرشوة موظف سوف أسجل هذا فى محضرى.

هتف كريم : رشوة ! لتحطمنى السماء ! لقد أهنت سعادتك مشاعرى . صدقنى أنا أحب الاطفال كثيرا . لدرجة أننى عندما أرى أحدهم . تتذرف الدموع من عينى . لا أفهم كيف يمكن أن تسمى هديتى رشوة لموظف، إنها بالنسبة لى شئ عزيز ، ومشاعر نبيلة ونقية . سوف أكون حزينا لو رفضت هديتى المتواضعة ومن جديد أوشك على البكاء .

وخضعت مشاعر الشرطى لاختبار قوى . فكل ما يتعلق بهذه القضية بدا مبهما ، بعيدا عن الروتين المألوف . فهل هذا الشاب مخلص ؟ لقد كاد الشرطى ان يقتنع بهذا . فلو كان واحدا من الثوار المتكابين المتصلبين المتطرفين ما تكلم بهذه اللغة . وماذرف الدمع . انه واثق أنه لم يخدع . الغريب أنه يعرف لماذا سبب له الحزن ، ماذا سوف يصبح العالم لو شرع الثوار فى التوبة ، والمغفرة ؟ بدا له أن نورا أضاء فى مكان ما .

وضع كريم احدى الطائرتين فوق الكومة وظل يمد الأخرى الى الشرطى فى توسل . وقد اكتسى وجهه بتعبير من المعاناة النفسية المثيرة للرتاء .

أصابته الطبيعة الرحيمة الشرطى بالخرج . أحس أنه قد ارتكب حماقة وأنه انسان أقل تحضرا، عليه الا يرفض هدية مقدمة له فى مثل هذه الظروف .

ربما أن بساطة الهدية تدفعه الى قبولها . سعل وهو يجلى صوته :

— ليكن . اتفقنا ، ولكن سوف آخذ الصغيرة .

رد كريم : أنا فى خدمتك . فقد غسلت عارى .

وبينما يمد الشرطى ذراعه ،، دعاه للاختيار ، وبعد لحظة من تردد

الشرطى . جاء اختياره على الطائرة الورقية الصفراء ، واضعاً فى حسبانته مشكلة المواصلات . فقد رأى نفسه يجرجر هذه اللعبة الضخمة حتى منزله . لم يخف ارتباكه ، قال كريم .

- بكل امتنان ، أمل أن يتسلى الأطفال جيداً .

قال الشرطى وهو يتجه نحو الباب : اشكرك باسمهم ، على الآن أن أنهى محضرى . سوف يتم استدعاؤك قريباً .

رد كريم : لقد أسعدتني زيارتك ، صدقنى ، أنا ممتن كثيراً .

وخرج مع الشرطى الى السطح . ثم اصطحبه الى باب السلم . وهو يقدم له عشرات التحيات والانحناءات . وقد احتفظ بسلوكه الجاد والوقور لدقائق . ثم فجأة انطلق فى ضحكة مجلجلة .

لم يستطع أن يوقف نفسه عن الضحك . فقد أصبح الكورنيش طريقاً حيويًا آه ايها الاقدار الانجاس ، انهم يملكون طريقاً حيويًا الآن . ياله من افتراض ! كل هذا كى يعلى من أهميته . وكى يجعله يترك المنزل لسبب مجنون ! لقد بلغ السيل الزبى ! انه على عجالة وعليه ان يرد على هذا التهديد . ان يترك نفسه تنفجر ، وإن يعطيهم هذه المتعة . أولاً . كان عليه ان يتصرف مع هذا الشرطى قبل ان يخط محضره . اعتقد كريم انه قد سيطر عليه تماماً ، ولكنه لن يعرف أبداً كيف انتهى بأن وافق أن يأخذ الطائرة الورقية . فلماذا لا يوافق على شئ آخر ؟ قرر كريم ان ينقل كل الحكاية الى خالد عمر . وأن يساومه . فهو الوحيد لاسباب عديدة ، الذى يملك أدواته . يتصل بالشرطة أو برؤسائهم ويمكن لخالد عمر أن يقدم أحسن الرشاوى مغلفة للموظفين . جمع كريم عدة شغله وأعادها الى الحجرة . ثم ارتدى ملابس على عجلة ، فقد حان وقت زيارة التاجر . عندما وجد نفسه خارج المنزل . وقف يفكر لحظة وهو يتأمل الكورنيش بنظرات مأكرة ، واستبدت به رغبة عارمة ان يتبول على الطريق الحيوى .

(٣)

بدأ خالد عمر- وهو شخص أُمي - فى التجارة فى مكان ينهى فيه التجار عادة عملهم: السجن . حدث ذلك منذ بضع سنوات. لم يكن سوى رجل حاف، يقرصه الجوع، وينام على الرصيف، كان يعيش على النهب والتسول، ولكن العناية الإلهية ادخرت له مستقبلا زاهرا .. لقد قُبض عليه فى حالة تلبس وهو يسرق حافظة أحد المارة، وحُكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهرا مع التنفيذ، هذه الظروف البائسة دفعت به الى الثروة. فخلف جدران السجن ولدت موهبته وأنطلقت. فتخلص من وساوس قلة الطعام، ولم يعد يشكو ندرة الرفاق أحببت روحه، لكنها ظلت متيقظة. ارتبط بمجموعة من الأشياء اتاحت له الفرصة. نظر حوله واندesh لكل هذه الظواهر الاقتصادية التى فرضت نفسها على مجتمع حى فى أنية مغلقة. فالطريق القذر الذى ادى به الى السجن قد مس شغاف قلبه ولكنه لم يشارك ابدا فيه. فراح يشتري بالأجل، ويبيع بسعر أعلى مما إشتري. أدهشته هذه العملية. انها أول ربح فى حياته. لايبذل فيه مجهودا. وبعد وقت قصير أصبح مضاربا حذرا واكتشف أبعادا غريبة لقوانين العرض والطلب. وفى الأشهر الستة الأولى سيطر على كل المقدرات، فرض مسألة السعر كما يشاء فاستولى على كل أنواع المؤن، والسجائر، والمخدرات، وأحيانا النساء. والسجانين، والمجرمين. فأرضا سلطته دون أى عجرفة . بمعنى أنه توصل أن يجعل السجن مصدرا للاقتصاد القومى.

وعند خروجه من السجن، كان ثريا يملك النقود. وسرعان ما ارتدى البذل. والشرابات، وقص شعره بما يناسب طربوشه. ثم أجر محلا. ودخل فى العديد من

العمليات القانونية - وعمليات أخرى ليست سوى بين بين - ولازمه حظ طيب، إنه الآن يملك عمارات عديدة، وأراضى واسعة فى المناطق الأكثر خصوبة. واستكمل عمله بون أن يبذل أى جهد، تمثلت كل أنشطته فى محادثات تليفونية مع ناس لم يرههم قط، ورغم نجاحه فقد احتفظ وراء ثرائه الخارجى وناقته المنفرة بأسلوب رجل له نزواته، ولغته الشعبية. فلم تربطه مودة سوى مع المتشردين، ولم يكن يخرج إلا فى صحبة العاطلين الذين لا عمل لهم وأمامهم متسع من الوقت. وفتحت الطريقة التى كسب بها كل نقوده عينيه على خداع هذا العالم. وفهم أن ما حدث له لا يمكن أن يكون له مكان إلا بين المجانين والصنوص.

كان مكتبه صورة لروحه الخشنة، يقع فى حارة من حي الجمرك، وكان قد تخلص من كل أوراقه القديمة وكتبه الرخيصة وأشياء أخرى سخيفة من هذا النوع. المخصصة لجلب الأعمال والتى تعطيه مظهرا مهيبا. لم ير هناك سوى مائدة يضع عليها تليفونا من طراز عتيق. ومقعدين كبيرين من الخوص، وفى ركن، على الحائط توجد بعض الخزائن الخشبية المغطاة بالأتربة.

عندما ظهر كريم، فى الظهيرة، فى مكتب خالد عمر، كان هذا يتكلم فى الهاتف، حيا زائره بيده الأخرى، وافهمه بحركة إيمائية أن محادثته تكاد أن تنتهى. جلس كريم فوق أحد المقاعد المصنوعة من الخوص وقد أعجب بالطريقة التى يتبعها خالد عمر فى أعماله فقد غاص فى مقعده الدوار، كان التاجر يستمع الى محدثه الذى لا يراه فيؤكد المحادثة، ويهز رأسه أو ينطق بكلمة جافة، وأحيانا يطلق تنهيدة كأنه يود أن يجعل الآخر يحس أنه قد ضحى بوقت ثمين من أجله، لم تكن هناك أى أوراق، ولا قلم فوق المائدة، فكل شئ مسجل فى الدماغ.

وضع خالد عمر السماعة، وغاص فى مقعده وأنفجر فى ضحكة حادة بدت كأنها قادمة من أمعائه، إنها ضحكة حيوان مبتهيج، ضحكة بلا سبب، وتلقائية تماما: كيف حالك يا صديقى ؟ هل تعرف ماذا طلب منى هذا الشخص فى التليفون؟

قال كريم . لا .

– حسن، طلب أن أحضر له نمرا .

– نمر ؟ بالتأكيد أنه يريد أن يطلقه على حماته، إنها نكتة ظريفة.

– أبدأ، فالأمر بالغ الجدية.

– لم تخبرنى أن لديك نمرا للبيع.

– ولم لا ، سوف أجد له واحدا .

وأمسك بيده - ذات الأصابع المرصعة بالخواتم - مبسم النرجيلة الضخمة المصنوعة من العنبر والموضوعة قريبا منه فوق الأرض ودهسه فى شفتيه، ثم شد نفسه وأطلق من خياشيمه سحبا من الدخان الكثيف، وعلق :

– أنت تعرف، يا صديقى الشاب، أنه قد جاء على وقت كنت أبحث فيه عن كسرة خبز فلا أجدها، كنت أحس أن الخبز غير موجود إلا فى مخيلتى. وأن الخبازين كائنات اسطورية. وهأنا الآن أعرف أين أجد نمرا، أعرف أين يجب أن اتكلم فى التليفون كى يحضروا لى نمرا طليقا أو فى قفص. أليست هذه معجزة ؟ ومرة أخرى، انطلق ضاحكا، هتف كريم :

– أمر غريب ؟

قال عمر. انه أمر بسيط، انه يتعلق بالدخول فى نفس الدائرة، كل مايرغبه الانسان هو أن يمتلك كميات خيالية مخزنة فى مكان ما، ومحفوظة جيدا، هل رأيت أبدا أطنان الارز ؟ أنا لا. ومع ذلك بعث آلاف الاطنان. هذا هو غموض التجارة، لانرى شيئا، كل شيء يدور فى الكواليس، أحس أننى أبيع الريح، وهذا شيء يبعث على التسلية.

– أنت رجل مادى، يا أخ خالد ! أريد أن أقبلك ! عندما أفكر أننى لن أستطيع التعرف عليك !.

نظر خالد عمر الى زائره بفرحة ظاهرة. فالصداقة التى جمعتة بهذا الشاب تعود الى اقامته فى السجن، لم يكن كريم قد تعدى العشرين فى تلك الآونة. فقد تم القبض عليه بصفته عضواً سياسياً خطيراً. وانحشر مع الخارجين

على القانون العام، وقد كان اتصاليهما الأول بالغ الصعوبة، فعندما علم تاجر المستقبل من كريم أنه موجود فى السجن لاسباب سياسية، لم يستطع أن يمنع نفسه من معاملته كغيبى مسكين، وأن يفهم كيف يمكن أن يفقد المرء حريته لدافع برئء أو لسبب سياسى. فحسب رؤيته فهذا غباء جميل، ومن ناحية أخرى، فلم يكن عليه سوى أن يقدم على سجنه. الذى خاطر من أجله بحريته بالتأكيد، ولكن هذا أمر غير ملموس قياسا الى حافظة مملووعة بالأوراق المالية. أيضا فإن شخصا من طراز كريم يبدو له مضحكا، فهؤلاء المساجين السياسيون ، يتصرفون كشهداء ويثيرون اشمئزازهم، إنتابته احيانا مشاعر اخوية تجاه هذا الشاب المثالى. لذا ساعده طوال فترة اعتقاله.

— هل يمكن أن أقدم لك شيئا ؟ قهوة ؟

قال كريم :أجل سوف أتناول قهوة.

قام خالد عمر واستدار حول المكتب وذهب ليفتح النافذة، دخلت الضوضاء فجأة من الحارة حيث يوجد سوق للفاكهة والخضار غزت الغرفة صيحات الباعة الذين يمتدحون بضاعتهم، وهزتها كأنها زلزال، سيطر على صوته الأجنش، صاح خالد موجهها كلامه الى صاحب المقهى المقامة على الناحية الاخرى من الحارة :

— اثنان قهوة يا عاشور !

رد صدى الصوت فى المقهى : اثنان قهوة !

اغلق خالد عمر النافذة بسرعة، وعاد ليجلس خلف مكتبه، وقد بدا منتشيا داخليا، كأنه قد تذكر لتوه قصة غريبة .

— أهنتك على شحاذك المزيف، فقد كان انتفاضة حقيقية هذا الصباح عندما اكتشفت الشرطة.

— أخبرنى : هل يتكلمون عنه فى المدينة ؟

— بدأت الفضيحة أولا بأن شرطيا قد كسر رقبة شحاذ عجوز، واغتنم الناس، الفرصة لكن الأمر سرعان ما انتهى حين فهم الناس الملهة بدت الشرطة

مرتبكة. وطلبت من الصحف التزام الصمت ازاء هذا الحادث. تصورت أن بعض الشحاذين الراغبين فى الاحتجاج على أوامر المحافظ قد دبّروا هذا .

- ليتخيلوا ما يشاعون. فلم ننته من الضحك بعد. اسمع، لقد جئت كى أخبرك أنتى دبّرت لك موعدا مع هيكى. سيكون هذا المساء. حوالى الثامنة فى شرفة مقهى «لوجلوب» ، كلّفنى أن أخبرك أنه سعيد بمعرفتك.

قال خالد عمر بصوت خائر ومرتعد قليلا : أنت تعرف أنتى تمنيت هذا اللقاء منذ أمد طويل. فكل ماحدثتلى به عنه الهمنى مشاعر فىاضة. أنا أحبه كأخ. وعليه أن يعرف أنه يمكنه أن يعتمد علىّ فى كل مايريد أن يفعله فثروتى الطائلة تحت أمره .

- لقد أخبرته بهذا. وهو يكن لك مشاعر أخوية. انه يعرفك أفضل مما أعرفك أنا. لقد كلمنى عنك يوما كرجل يملك قلبا كبيرا . كل هذا دون أن يراك. أنا متأكد أنه لن يخيب أمله.

- ماهى تصوراتك ؟ ألم يقل لك شيئا ؟

صرح كريم : لا ، اعتقد أنه يريد أن يكلمك عنها أولا ، فهو فى حاجة لمساعدتك، هذا المساء.. يلا شك سوف يضعك فى إطار خططه.

- هل ستستمر يوما فى إرسال خطابات القراء الى الصحف، انها فكرة شيطانية، وأنا مشغول بها .

كان تعلق الصحف فيما يتعلق بالمحافظ قد تجاوز كل ما يحدث حتى الآن فى إطار الحقارة والخسة. فبصوت الصحافة تغنى المدينة بأكملها فى مدح الجوع. ولا يسمع أحد يتكلم فى أى مكان عن مبادراتها أو عن رغبتها فى هزيمة الجوع، حتى مميزات الجنرال السابق قد صيغت بشكل واضح ، وكأن المدينة ميدان معركة حقق فيه المحافظ نصرا حريبا بينا. هذا الموقف الذى نجح هيكى فى تفجييره. كانت الحيلة تتضمن متابعة الحركة ثم تجاوز غبائها لدى حاملى المباخر. بأن يرسل إناس من معارفه خطابات الى الصحف، ملينة بالتعلق حول الأنشطة

الحكومية التي لا يتريد أحد إلا فى نشرها ، وقد آمنوا بأن كل هذا من أجل مجد
اسيادهم.

قال كريم .

— ليس الآن . سوف نبدأ من أعلى مكان لمنع الصحف من نشر هذه
الرسائل. فأخر حكايات قمنا بإرسالها كانت بلا صدق، يبدو أننا تجاوزنا الحد،
هل تذكر ما كتبته بنفسى، وأنا أقارن بين المحافظ والاسكندر الاكبر.

— أذكر ذلك جيدا ، فقد قرأته علىّ. لقد كان خطابا شهيرا !

— حسنا، هذا الخطاب لا يزال يعمل به فى بعض الاوساط كوثيقة فريدة.
فالصحيفة التى نشرته زاد توزيعها فى هذا اليوم بضع مئات من النسخ، صدقنى،
لقد اعتبرت أفضل نموذج لخدم السلطة. وعلى خدم الحكومة أن يتعلموا منه.

قال خالد عمر : وإذا ، فكم أنا أسف لأننى لا أعرف القراءة. سوف أكون
سعيدا فى كل لحظة.

طُرق على الباب، ودخل الغرفة صبى على أطراف قدميه، يبدو قدرا
وأشعث، ويحمل صينية عليها فنجانان من القهوة.

— القهوة يا عمر بيه.

قال التاجر : ضعها هنا.

وضع الصبى الصينية. ثم ألقى نظرة خبيثة على الرجلين. وما لبث أن
هرول وهو يعرج خفيفا. قال كريم وهو يمسك فنجانه : لقد حدثت لى حكاية بشعة.

— ماذا ؟ لقد اقلقتنى ؟

— أه. لم تكن سوى حكاية سخيفة.

كان عليه أن يطلق ضحكة مدوية.

حكى لخالد عمر عن زيارة الشرطى المصاب بالربو ومزاعمه أن الكورنيش
طريق حيوى.

كانت تلك فرصة لخالد عمر أن يسمع ضحكته المجلجلة. قال عندما هدا :

- المساكين. إنهم مدهشون، قل لى يا رجل، هل ألقت هذه الحكاية ؟

- لا . بشرفى، وهل أنا بقادر على تأليف شىء كهذا. على أن أخبرك أن الأمر تطلب منى جهدا شديدا حتى لا أنفجر فى الضحك عندما نطق بهذه الكلمات، فى الحقيقة كان رجلا طيبا، انه نوع من رجال الشرطة الطيبين، وكى ينجح فى هذه المهنة عليه أن يعيش لسنوات على الكفاف. فهو عجوز ولماح. ثم اننى حاولت أن أرشوه.

- بأى وسيلة ؟

- سألته أن كان لديه ابناء. وعندما رد بالايجاب. قدمت له طائرة ورقية من أجلهم. لم يوافق سوى على طائرة صغيرة. اختارها بنفسه. ثم ذهب وهو يقول لى إننى ساكون مدينا لك طول العمر.

هتف عمر . بارك الله اليوم الذى عرفتك فيه. ماذا يمكن أن أفعل كى أخرجك من هذه العثرة ؟

- حسنا، أعتقد أنك إذا استطعت أن تجعله يحصل على بضع أقات من السكر. فسيكتب محضراً لصالحى.

- سأغرقه بالسكر. إذا كان هذا يسعدك. هل من شىء آخر ؟

- لا شىء، شكرا.

- بل أنا الذى أشكرك.. لقد غمرت قلبى بالفرح لأنك ستعرفنى على زميلك هيكل ساكون مدينا لك ما حييت .

ورغم أن خالد عمر لم يبرهن قط على ما يحمله من مودة. فإن تعجله فى التعرف على هيكل جعله يبدو وكأنه شاعر عاشق متيم سيقابل ملهمته. أحس بنوع من البهجة الداخلية العميقة، أكثر من أى احساس بالشهوة. إنه رجل يتخيل نفسه يحارب التعنت والعنف من خلال مدحه للجلاد، عليه الآن أن يفعل شيئا غريباً ! فقد حلم خالد عمر بمثل هذا الرجل من أمد طويل.

(٤)

تلفع بروب دى شامبر قرمزى، ترك هيكل اريكته، للمرة العاشرة علي الأقل، واقترب من النافذة، ورغم أنه فى قمة العصبية، فإنه احتفظ بمظهر هادىء وبارد الاعصاب. تحرك بكل خيلاء كأنه قد تربى فى القصور الملكية. كشفت النظرة الباردة، التى خلت من المشاعر عن تصميمه أن يترك نفسه للقدر، فمئذ لحظة، فقد الأمل فى أن يظهر خادمه «سرى». هذا الذى يمكنه أن يعود غدا أو خلال أسبوع، لا أحد يعرف متى، حتى هيكل نفسه. لقد أرسله بعد الظهيرة، كى يذهب بيداته الوحيدة الى كواء الحى. ولم يعد حتى الآن، فى السادسة مساءً، أغرق هيكل غياب خادمه فى ألم مرعب، فقد راح يتحرك فى شقته وكأنه يتأهب للخروج. لقد بنيت كل ملابسه الأخرى، ويعيدنا عن الجدال، فهيكل حريص أن يرتدى ملابسه الانيقة، وبأن ضرورة جمالية تبدو عملا طفوليا، وذلك من أجل بعض الاعمال الوظيفية. لأن الشاب كريم حاول أن يدبر مع السيد الكبير لقاء ذا مغزى، فهيكل نفسه ليس صاحب ثروة ولا جاه اجتماعى، ولكن الطريقة العجيبة التى يرتدى بها ملابسه والتى يمشى ويتكلم بها ليست سوى نتاجا لاجتهاد خاص يلزمه منذ ولادته وتبعاً لطبيعته الراقية.

ابتعد عن النافذة دون أن يكتسى وجهه بأى مرارة. الرأس عالية، وكأنه يتحدى مصيره. فـ «سرى» لن يعود مبكرا. لقد انطلق الى المجهول ومعه بدلة هيكل. هذه البدلة الابهة القديمة التى اشتراها منذ بضع سنوات. راح هيكل فى هذه اللحظة، يتخيل نفسه عرضة لمغامرات ملفتة للنظر، بأسلوب السخرية الذى

يتخذة لنفسه، والاهتمام الزائد الذى يحمى به نفسه ضد أقل ذرة تراب، يشكلان جزءاً مهماً من قراغه.

إنها بدلة كاملة، مصنوعة من قماش مستورد، ذات ألوان داكنة وقوية، فصلها أمهر الخياطين فى المدينة بحرفية بادية، لذا فهيكل يرتديها دائماً مما جعلته يحتفظ دائماً بشكله الانيق ، آخذاً فى الاعتبار مابلغته من تقدم السن. فعندما اشتراها كانت تساوى مبلغاً خيالياً، أنها تساوى ثمنها ، وهو يضيف عليها تميزاً بالاضافة الى وقاره الطبيعى، فهذه البدلة التى تخطف الابصار تعطى لهيكل ملامح الشخص الموسر الأهل للثقة ، أنه يرتاد اوساط المدينة الأكثر رقياً بصفته شاباً ينتمى الى الطبقة الموسرة، انه بلاشك ثرى، لم يفتقد قط معظم مصادره من خلال ايراد ضعيف يأتيه من قطعة ارض ورثها، يكفيه كى يعيش بشكل متواضع. لا أحد يعرف مساحة هذه الأرض، لكن اساليبه تؤكد بشكل عام أنه رجل ثرى يملك العقارات، فى الثانية والثلاثين من العمر، لم يعمل ابداً. سعيد بارضه الصغيرة كثيراً. انها أفضل من العمل مع هذه الحثالة من اللصوص القتلّة الذين ينتشرون فى الأرض، ومع هذا فإن هيكل لم يكن عاطلاً، فقد انشغل طيلة وقته بممارسة الجانب الساخر من الانشطة الانسانية، فالعالم الهزلى يعجبه، بمعنى أنه بالغ الحساسية لكشف أقل بادرة من العقل، فيما يراه أو يسمعه حوله. وأحياناً عندما يقرأ خبراً فى جريدة قريباً من أفكاره، لقد أصبح مريضاً بالغيبظ، كلما رأى الجنون الغيبى الدائم لبشر يمارسون فرحتهم. كان أشبه بطفل فى سيرك لا يكف عن رؤية الاشياء ممتعة بشكل عام.

نظر الى المنبه الموضوع فوق الكومدينو. الساعة الآن السابعة. إنها حنود الوقت الذى اتفق عليه مع خادمه، عليه أن يخبره بالمصائب التى حلت، ولكن فى إطار الصداقة، فإن غضب هيكل لم يتضح ابداً. استمر فى التصرف بهوء تام، ولم تبرح الابتسامة شفقتيه، بدت عليه علامات خفيفة من الخشونة. اشعل سيجارته. ثم تمدد على الأريكة، وقام للحظة كى يتجه الى النافذة. لاشئ، لقد اعتاد مثل هذا الروتين، تخيل «سرى» مدهوساً تحت عجالات ترام، وأحس بنوع من السعادة أمام هذا الخاطر، فتأخير عودة خادمه سوف تمنعه من الخروج. سوف يخلف مواعده مع خالد عمر. هذا الرجل الذى بدت علاقته به جدية، ويجب أن تزداد

قوة، انه لمن المؤسف أن يخلف أول ميعاد مع التاجر، فممنذ أن حدثه كريم عنه، وهو يتكلم عن الظروف الاستثنائية التي تقوم عليها صداقتهما، لذا يرغب هيكل أن يتعرف عليه. لكنه يكاد أن يتأخر عن هذا اللقاء، ربما عليه أن يتأكد من بعض المعلومات المؤثرة في علم النفس الشخصي، فهو يرى أنه يمكنه أن يطلب مساعدته يوما بصفته شريكاً له قيمته في ممارسة سخريته الخاصة، فحسب ثقة كريم فقد كان يعرف أن التاجر ماهر لكافة أشكال المؤامرات ذات المغزى السياسى. كما كان يكره السياسيين ويعتبرهم أكثر سفالة من الكلاب، ليست الكلاب الحية. ولكن الكلاب الميتة العفنة، فالمؤامرة التي حدثت عنها لا يمكن أن تغريه فقد حدثت أنه ليس في نيته أن يستولى على السلطة، ولا أن يلقي قبلة على رأس المحافظ.

كان المحافظ هو أحد الوجوه المخادعة المعروفة. ربما الوجه الأكثر اثارة للضحك. تعرف هيكل على ذلك من شكله، فهو يراه يوما في صالة الألعاب بكانزينو البلدية محاطا بأقرب أعوانه. هؤلاء الذين يشكلون مجلسا من التابعين يحومون حوله كالخدم، يبتسمون بمهابة وبلاهة. يهتفون بكل حماس، كان هيكل مغرما بغباء هذا الرجل الكبير، الذي بلغ درجة هائلة من تصديق نفسه. كما أمكنه أن يبلغ مكانة من الغباء المتساوى، الذي يدفعه الى الاحترام، يرى فيه كل غباء البشرية. كان هيكل يخاف أحيانا من المشاعر السادية الكامنة في هذا الرجل، بدا له أنه قد عين محافظا لأرضاء شخصه، ومبادراته، وخطبه الجماهيرية، لم يفكر سوى في التملق وأن يقدم له ما يشجذ حسه الانسانى. كأنه يشك أن شخصا في المدينة يمكن أن تصدر منه بعض الحماقات كى يحس بالمتعة. لم يفتقد روحه كمهرج، كيف لم يستطع هيكل أن يحب رجلا مثل هذا ؟ لا شك أن موته يعتبر إهانة. هذا ما لم يفهمه الثوار الاغبياء الذين يناضلونه بشكل عنى. فهم يعطونه الفرصة كى يأخذ الأمر بشكل جدى، وبالنسبة لهيكل، فإن جريمة الأقوياء تعتبر شهادة. وهو ليس على عجلة أن يعطنها بأعلى صوته فى الشارع. بل حتى يمكن لطفل أن يلاحظها وحده.

توجه مرة أخرى نحو النافذة، استوقفته حركة قادمة من الممر. فجأة زالت غضبته ضد خادمه مرة واحدة، أحس كأنه قد تخلص من الغضب، وبعد ثوانٍ، ظهر «سرى» حاملا بدلاته الشهيرة على كتفه معلقة فى الشماعة:

— هل هكذا أستطيع الاعتماد عليك ؟

بدأ «سرى» أمام مخلومه بوجه متعب ذى تعبيرات، منهكة. ورغم أنه لم تبد عليه الدهشة فإنه بدأ مسطولا تماما. وفي حالة انعدام وزن، العينان نصف مغمضتين. بدأ نائما وغير واعيا لنفسه. وكأنه قد قطع حبله السرى مع الناس منذ لحظة ميلاده. مما أتاح له الهدوء والتفكير، ودون أن يفتح عينيه، قال بصوت هادئ:

— يا أمير .. انها ليست غلطتى، بل الظروف ..

— أى ظروف ملعونة ! أنا على موعد مهم، ويسيبك سوف ألفيه.

قال «سرى» وهو يفتح عينيه الشاحبتين : أسف يا أمير. ولكن الظروف ..

قال هيك : اسكت والا خنقنك. هيا. ضع البدلة على الأريكة

لم يرد «سرى»، ولكنه هز رأسه بضعف، مؤكدا أنه لا يستحق مثل هذا الاستقبال، وبحركات بطيئة، وكأنه ينام ببطء، وضع حمله الثقيل فوق الأريكة ثم تمدد فى ركن من الغرفة وانتظر بكل قلق أن يوجه له سيده الكلام. لكن «هيكل» لم يعره انتباها، وقف أمام مرآة الدولاب، وبدأ فى إرتداء ملابسه، سعيدا أن يبدو على هذا المنوال. انه هكذا دائما، فمن المستحيل أن يصيبه كل هذا من خائمه، فخلف شكله الخارجى الرائع يمتلك «سرى» مواهب لا نقاش فيها. لذا فهيكل يعتمد عليه فى المسائل المادية. يمكنه أن يبقى أسابيع عديدة دون أن يعطيه نقودا، ويستمر «سرى» فى التمسك بوظيفته وكأن النقود لا وجود لها. فهناك ما يتكلمه فى وقت الراحة. إذن لماذا يتخلص منه. ظل هذا أمرا غامضا. شك هيكل فى أنه يسرق المأكولات وبعض السلع من عند تجار الحى. ينتظر من يوم لآخر أن يراه وقد انتهى به الامر فى السجن. ومن وقت لآخر، يبدو «سرى» أشبه بلقز، فهو لا يتكلم عن النقود كشئ ضرورى، أو أنها يمكن أن تنفمه، أعلن هذا وكأنه اكتشف فلسفة عدمية، ولكن ما أهمية هذا التلميح الغامض لأزماته المالية، فكل هذا هباء. لقد فهم هيكل أن خائمه على حافة الافلاس. فاقترح عليه القليل من المال. رفضها «سرى» زاعما أن الأمر غير ضرورى، وأنه ليس على وشك الدمار. ألح هيكل، وكأنه سوف يغضب. وأخيرا وافق «سرى» على المبلغ على مضض.

وعندما رأى مخدمه يدير له ظهره، استكمل ارتداء ملابسه دون أن يلبي .
مطالبه، لم يكف «سرى» عن هز رأسه، ولكنه شرج في المهمة من بين أسنانه.
بدا كئنه يرد على اتهامات مدبرة ضده من أشبه بالهين وهميين وأنه يضعه في دائرة
الشك، تركه هيكل يزفر شكوته، ثم قال بنفاد متين:

— ماذا هناك أيضا ؟

— هذا ليس عدلا، يا أمير !

— ماهو الذى ليس عدلا ؟ ألا يكفيك أن قرأتى متأخرا على موعدى ؟ هل
يجب أن استمع الى نحيبك ؟

— نعم، يا أمير، ليس عدلا. لا أستطيع أن أحتمل أن تغضب منى. لقد
تأخرت فعلا، ولكنها ليست غلطتى. يجب أن أنقذ شرف بيتنا !

— شرف بيتنا ؟ ماذا تقول ؟ ألا تتركنى فى حالى. رح ونم فى المطبخ.

— لا أرغب فى النوم. يجب أن أحكى لك القصة بمرمتها.

استدار هيكل وهو ينذر قميصه ليرقب خادمه، إنه يعرف نوع القصص
التي يحكيها «سرى»، كانت فى أغلب الاوقات حكايات غامضة، وطويلة الدرب،
وصعبة التصديق، أما إذا كان لديه الصبر ليسمعهما فإن هذا من قبيل المكافأة،
لأنها دائما تتعلق بموقف طريف، يسمعهما هيكل بكل متعة، ولكنه الآن على عجلة
للذهاب لمقابلة خالد عمر. وسوف يرفض اغراءه قال :

— لا أريد أن أسمع شيئا.

— استخلفك بالله أن تسمعنى.. لم استطع أن أفعل غير ذلك، أتود أن نفقد
ماء وجهنا أمام الاجانب ؟

— لا أفهم شيئا مما تقول، لماذا نفقد ماء الوجه ؟

بدا «سرى» وكئنه آثار فضول سيده، وقد أتخذ هيئة قصاص شعبي.
بمعنى أنه مال فوق الارض، وراح يجلى صوته، ثم تاهب لحكايته ، وألقى نظرتة
حيث يبنى ضجره الغامض. وبدأ:

- حسنا يا أمير، فإنت تعرف، أن دكان «صافى» الكواء مكان مفضل
العديد من نبلاء الحى، يجلسون هناك طيلة النهار يتفلسفون ويدخنون ويشربون
الشاي الأخضر، يجب أن أقول لك أنهم يعاملوننى باحترام فائق، إنهم ناس
معروفون ويعلمون أنتى أخدم فى منزلك.

سكت «سرى» وأغلق عينيه تماما، وكأنه افتقد انفاسه، سأل هيكل :

- هه .. ويعد ؟

رد «سرى» : يا أمير، هذه العصرية، أدركت أن الموقف خطير.

- أى موقف يا ابن الكلب !

- افهمنى يا أمير ! لايمكن أن أتركهم يعرفون أنه ليست لدينا سوى بدلة
واحدة، ففي كل مرة يرونها هى نفسها، فبدلوا ينظرون الى بايتاس وهم يهزون
رؤوسهم بمظهر المرتاب، عندما اتكلم عن الرخاء الذى نعيشه فى منزلنا،
باختصار، لقد زاد الكلام علينا ، لذا، رحت أبتدع حكاية كى أنفى هذا الموقف.

قال هيكل بغضب بارد . أكمل، الآن أنا متأكد أنك مسطول.

- ليحفظنى الله ! لاتغضب يا أميرا لقد أردت أن أكذب كل المزاعم حول
موضوع ثروتنا، وأن احكى لهم أنك تولى عناية لهذه البدلة، رغم الدولاب الملىء
بالملابس من كل الانواع لانها تذكرك بمغامرة عاطفية تركت قلبك ميتا . لقد جعلتهم
يعتقدون أن ارتداء هذه البدلة قد تم فى لقائك الأول مع امرأة جميلة عشت معها
أكبر قصة حب فى حياتك .. ولكن .. هه ..! لقد ماتت المرأة .. فأصبت - سعادتك
- بالإعياء، وظللت تحس بنوع من المشاعر لهذه البدلة وأنت تتذكرها. هذا كل
شئ، يا أميرا! سوف تقول أنه أمر غير مهم.

- وهل كانت يلزمك كل هذا الوقت لقص هذه الغباعات ؟

- لم يوبوا أن يتركونى أذهب يا أمير، أرابوا أن يعرفوا تفاصيل المغامرة،
مثلا : ما اسم المرأة، وكيف ماتت، وإذا كنت قد تزوجت. وكان على أن أرد على
أسئلتهم، وفى النهاية، ذهبت بعد أن وعدتهم أن أحكى لهم تفاصيل أخرى فى المرة
القادمة.

— بدا كأنه نائم أكثر من ذى قبل. قام «سرى» وأمسك فرشمة الملابس، وراح يقف قريبا من هيك. وقد اعتقد أن الأمر قد انتهى. وانتظر أن يهتئ سيدة ثم سأل:

— هه .. ألسأ غاضبا يا أمير ؟

قال هيك : حسنا. سوف اسامحك. رغم هذه القصة الغبية التى لم أسمعها. الآن، لقد أهملت شئون البيت. وجعلتني أتأخر عن موعد مهم. أجاب «سرى» وهو لايفتح عينيه، وقد بدت عليه تباشير عاف : كيف أستطيع أن أهمل شئون البيت . إن أترك أحدا قط يشتمك يا أمير. قال هيك وقد أدرك أن من الخطر أن يطول النقاش، فالشرف هو الموضوع المفضل لخدمه :

— أعطنى منديلا.

توجه «سرى» الى الكومدينو وهو يعرج من أجل أن يحضر منديلا ابيض نظيفا، مد يده الى سيدة. الذى أمسكه وفحصه بدقة كى يتأكد أنه خال من أى أثر للتراب، ثم دسه فى جيب سترته الداخلى. الآن. هو فى قمة اناقته. نظر للمرة الأخيرة فى المرأة، ووجد أن كل شىء بلغ درجة تجعله مؤهلا للخروج.

هذا الخروج الذى باغته قليلا لم يكن على مزاج «سرى». فقد اراد أن يناقش طويلا مع سيدة، وأن يبوح له ببعض الافكار العميقة النابعة من مخه «التعسان» . لكنه أحس أنه لايمكن أن ينال الرضاء لان هيك قاطعه. ثم رمش بعينه. وتساعل بصوت صافى :

— ماهى أوامرك ياسيدى ؟

رد هيك : لست فى حاجة لشىء. سأتعشى فى الخارج. يمكنك أن تنام. واختفى فى الممر، تاركا «سرى» فى غاية الدهشة.

(٥)

كسى مُشعل المصابيح بحركته الماهرة ضوء الفروب بجو من الخيال الساحر، راح يمارس عمله الليلي وهو ينتقل من مصباح لآخر. وكأنه بهلوان، تتبعه هيكل بعينه لحظة، قبل أن يغوص فى الشارع، ما إن سار بضع خطوات حتى سمع همسا من رجل يبدو كأنه يختبئ خلف جذع شجرة. بوغت به، تقدم هيكل نحو الرجل المجهول وتفحص وجهه للحظة قبل أن يتعرف عليه، كان الرجل معرفة قديمة، إنه شحاذه الشخصى منذ سنوات، ينتظره كل يوم أمام بابه، لم يره هيكل منذ أن طاربت شرطة المحافظ زملاءه عبر المدينة.

راحت أعضساء الرجل ترتجف، وبدت عيناه « المعستان » زائفتين أما أسما له فأكثر قذارة من العادة، همس بصوت خفيض :

— يساعد الله المؤمنين !

قال هيكل : نعم، إنه عصر حزين، أين كنت منذ فترة ؟

رد الرجل هامسا : كنت مختبئا، ماذا تريد أن أفعل ؟ أنهم يلقون بكل من يمسكونه فى السجن، هذا المحافظ من النوع العنيد.

— أعرف ، لكنه لن يستمر طويلا، سوف تنتهى الأمور الى الأفضل.

— يسمع منك رينا، أنا عطشان لكلمة أمل.

التفت حوله، وبدا كأنه يخشى أن يظهر أى شرطى فى أى لحظة.

أكمل:

– سوف تُخرب هذه المدينة، وسيضطّر المساكين للاختباء.. ترى كيف سنعيش ؟

علق هيكل . لا تشاعم . هيا أخرج من هنا ، رافقتى حتى آخر الطريق ، سنتحدث ونحن نمشى .

بدا الرجل مليئًا بالفزع ، قال :

– لا أستطيع . إنهم فى كل مكان ، إنهم يطاردونى .

قال هيكل وهو يمسكه من ذراعه : لا تخش شيئًا ، أنت معى ، لن يستطيع أحد أن يقترب منك وأنت تتمشى مع صديق .

هتف الشحاذ : صديق ، من أجل هذه الكلمة فلا يمكن أن تورث على نار .
تابع هيكل ، مترددا فى البداية ، ثم مشى إلى جواره ، بدا خوفه وكأنه قد زال ، ظل محتفظًا بإيقاع خطاه . ابتسم هيكل ، فهو سعيد من هذا اللقاء وراح يبحث عن وسيلة لمساعدة هذا الشحاذ ، قال :

– سوف أقدم لك اقتراحى . لست فى حاجة أن تنتظرنى فى الشارع ، تعال لتزورنى كل يوم فى منزلى . فليس هناك أى خطر .

نظر هيكل الى الشحاذ وراه قد أصبح أكثر حزنًا ، فالإقتراح لم يرضه قط .
سأله :

– ماذا يضايقك ؟

سكت الرجل ، وقد بدا مكفهرًا ، وكأن هيكل قد أهانه بشدة .

انتهى بأن قال :

– لست موظفًا ، وماذا ستفعل صداقتنا ؟ ألا يوجد سوى النقود فى الدنيا يروقتى أن اتحدث معك وهذا هو ما أئتم عليه .

قال هيكل : فهمت .. وأنا أيضا أفقد هذا ، إذن ، إفعل ما قلت لك ، خذ هذه .

أخرج قطعة نقود من جيبه وبسها فى يد الشحاذ .

قال الرجل : ربنا يزيدك بركة .. فرؤية وجهك تجلب لى الخير .. وتولد الأمل فى قلبى .

الآن ، حل الليل. وصلا عند أطراف ميدان يغمره الضوء تماما، وتحفه المحلات، والمقاهى المليئة بضجيج الزبائن، دليل سيادة هذه الحضارة البوايسية التى تتحدى هذا الشحاذ. توقف غاضباً ، وكأنه أمام غاية غزتها الحيوانات المتوحشة المتأهبة للانقضاض عليه، فقرر الا يذهب بعيدا. قال هيكل :

— حسنا، اتفقنا . هل ستأتى لرؤيتى ؟

وعده الرجل : سوف أجيء لأراك مرة، على أن أجرب الموت ! حفظك الله.

نصحه هيكل بالحدز .. ثم تركه وعبر الميدان.

يقع مقهى الـ «جلوب» الشهير على مسافة قريبة من الكورنيش فى أحد الشوارع الأكثر فخامة بالحي الافرنجى. توجه إلى مكانه الذى يمر أمامه دائما بلا توقف، أكبر عرض من الحسناوات حيث يقضى أغلب الزبائن - يمكن أن نقول جميعهم - أوقاتهم فى استكشاف هضاب النساء اللاتى يعمرن فوق الرصيف بإيقاع يثير الدهشة. فالأثواب الرقيقة التى ترتدينها هذه المخلوقات عامة جذابة. تجعل مهمته سهلة، بعض الزبائن، - وليس أغلبهم - من الشبان، يجلسون طيلة النهار، يراقبون عن قرب اتساق ساق جميلة، أو تموجات فائرة لردف ما. حقا، فإن ما يحصل عليه الفتيان من هذه التأملات العاطفية لفتنتهن ليست كافية، يحكى أن من بينهن، توجد بعض الداعرات اللاتى يخرجن عمدا بلا «لباس» من أجل إثارة المتعة الخبيثة لدى البصاصين «الغلابة» . ولهذا فإن شرفة مقهى «الجلوب» لا تخلو أبدا. حتى فى ساعات القيقظ بعد الظهيرة. لأن هؤلاء الأنسات، حسب العادة، يستعرض أجسادهن فى ساعة القيلولة. أما داخل المقهى فيبدو خاليا تماما. يرى أحيانا رجلا أو ثلاثة من العجائز على أهبة الرحيل من هناك، منشغلين - بلا هدف - فى مباراة نوميно تكون نتيجتها مخاطرة ميئوس منها، من وقت لآخر يلتفتون رغما عنهم الى صيحات الإعجاب لزبائن الشرفة، فيلقون عبر الفتحة الزجاجية نظرة الى الشئ موضع الدهشة، ثم تخيب مشاعرهم. ويلقون بأنفسهم فى لعبتهم الشيخوخية.

جلس هيكل عند طرف الشرفة. كعادته. ثم راح يفتش بين الموائد، يتذكر

المداعبات القسرية حول بدلتها الرائعة المكواة لتوها، نظر أمامه وبدأ غير مستعد لأن ينتبه للعابرين في الممر، تساهل إذا كان خالد عمر قد وصل. وهل سيتعرف عليه. هذا دليل مؤكد يجعل التاجر هدفا بأن يسبر فيه صديقه الحميم الجديد، أنه نوع من الاختبار. عليه الآن أن يتعرف على هذا الرجل الشديد الذكاء، بدا له أنه من المستحيل على خالد عمر - إذا كان صحيحا هو الشخص الذي يتصوره - أن يكون قد تجاهل وجوده.

وقف شخص أمامه كأنه يسد الطريق، أخفض هيكل نظرتة، ورأى هيكل «عمر» الذي مد له يده الضخمة المرسعة بالخواتم:

- لقد شملتني بشرفك !

أجاب هيكل: بل كل الشرف لى.

أمسك يد الرجل. وراح يضغط عليها بيديه. أجاب خالد عمر :
- تفضل ، اجلس.

جلس هيكل. وظل خالد عمر للحظة واقفا. ثم جلس بدوره. لم يكف عن النظر اليه، وبدأ هيكل زائغ العينين. أعطاه الإنطباع أن شخصا ما كان سببا لنبرته المبتهجة. قال هيكل:

- معذرة إن جعلتك تنتظر، هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

بدا خالد عمر كأنه يخرج من حلم :

- عشر دقائق تقريبا. ولكن هذا لايهم، أنا بالغ السعادة لرؤيتك. لقد عرفتك على الفور.

اقترب النادل منهما، زجاجة ويسكى وطبق صغير مليء بالمشهيئات، سأل الصبى وهو يوجه كلامه الى هيكل:

- ما طلبات سعادة البية؟

طلب هيكل ويسكى فذهب النادل، أمسك خالد عمر طبق المشهيئات وقدمه للشباب:

- تفضل ونحن ننتظر.

قال هيكل: لا، شكرا، ليس الآن.

قال خالد عمر: اعذرني لأننى أكل أمامك ، فأنا أحب المشهيات ... كل أنواع المشهيات.

التقط من المشهيات ... ودسها فى فمه ثم ألقى النفايات بأصابعه.

أكل خالد عمر من المشهيات وهز رأسه وهو يتفحص هيكل مشدوها:

- لقد عرفتك على الفور.

رد هيكل: أريد أن أخبرك أن هذا يسعدنى.

- كنت واثقا أنتى سأعرفك، أليس كذلك؟

- ماذا تعتقد ؟

قال خالد عمر : حسنا، من الغريب أنك أردت مقابلتى بهذه الطريقة. لا أفهم لماذا تبحث عن المصاعب. كان يمكن لصديقنا كريم أن يقدمنا لبعضنا، على كل لم يخدمنى وهو يصفك، هذا لايعنى أنه وصفك شكلا، وملبسا، لا، بل كلمنى عن أفكارك، ويكفى هذا لأن اتعرف عليك.

تسأل هيكل : هل تبدو افكارى على وجهى؟

- لا أعرف كيف أشرح لك، لقد رأيتك لتوك تعبر الشرفة، وتساعت: هل هو؟ لقد بدا عليك أنتى اعرفك أكثر من الآخرين.

قال . اعرف شيئين بالغى البساطة، أما الباقي فلا أهمية لهم .

- انهما ربما الشيئان اللذان اعرفهما .

- بلا شك، ولهذا أنا هنا، يمكننا أن نتكلم بصراحة.

- أذن قل لى أول الشيئين، وأنا أسمعك.

وكأن ما سوف يسمعه يستحق زيا رسميا، لذا أسرع خالد عمر بضبط رابطة عنقه وناعم شاربه المصبوغ، لم يكن فى تصرفه أى دليل مزاح، وأيضا أى نوع من القلق:

- الأول هو أن العالم الذى نعيش فيه تحكمه عصبة نبيلة من الأنذال التى

لطلخت الارض.

— أنا متفق تماما مع هذا الرأي، والثاني؟

— الثاني، أنه لا يجب أن نأخذ الأمر على محمل الجد، لأن هذا هو ما يرغبون فيه.

قال خالد عمر وهو يطلق ضحكة صاخبة وعميقة : اتفقنا .

أثارت الضحكة العنوى، لأن العديد من رواد المقهى قد رددوها لتوهم، وتداولونها كل بطريقته، استدار خالد عمر حوله وراح يغمز لهم بعينين ممتنتين، وكأنه يشكرهم أنهم انتبهوا لمرحه، وكأنه يشجعهم على متابعة هذه البهجة الهذيانية، ثم هدأ، أما الآخرون فقد استمروا فى الضحك الذى انطلق بون أى قصد، لم يشارك هيكى فى هذه البهجة العامة، وظل جالسا فى مقعده بكل جمود وشموخ، يراقب بكل رضاء تصرفات صديقه الجديد، إنه مشدوه للغاية بهذا الرجل القصير المرح المكرش ذى الشارب اللامع المدهون الذى تفوح منه رائحة البنفسج، إنه حالة بسيطة . رجل لم تفسده النقود، ظل على نفس طريقته كشخص إلى عهد قريب يمشى حافى القدمين وينام فوق نفس الرصيف، بدا متنكرا فى ملابس المتعددة الالوان. فلم تستطع كل ثروة العالم أن تأخذ منه هذه البهجة الأصيلة، هذه المشاعر الخشنة التى تبدو فى كل حركاته، بنت ضحكته كأنها تحد سافر وساخر فى مواجهة السلطات، أكمل خالد عمر:

— هذا أمر بديهي.

قال هيكى : نعم، إنها لا تمنع إلا القليل من الناس أن يتصرفوا بمثل هذه البديهية.

— ماذا يهمنا؟ هل ستكون من الناس الذين يؤمنون بحكم العالم؟

رد هيكى: ليحفظنى الله. لا أود حكم العالم مهما كان، فلا يوجد أسوأ من هؤلاء الذين يحكمونه، إنهم جميعا من الطموحين.

قال خالد عمر : أعرف ذلك، ولكننى سعيد أن أعرف ذلك على لسانك. لقد قابلت فى السجن بعض هذه النماذج، بدوا لى كأنهم من عجيتنى بمظهرهم المألوف. كانوا أكثر انتفاخا من امرأة حامل، لقد أثرت معاشتهم على فى السجن تأثيرا مريرا .

قال هيكى بحقد باد أنهم يثيرون الملل، هدفهم هو تغيير الحكومة بأخرى.

هذا ما قيل بالضبط. كان أغلبهم يحلم بأن يصبح وزيراً، هل يمكنك أن تتخيل طموحاً أكثر قذارة، أرجوك لا تكلمنى عن هؤلاء الناس.

— أنت على حق، إذن، إسمع، أريدك أن تعرف أن هذا يجعلنى متوافقاً معك. لقد حكى لك صديقنا كريم اننى بحكم القدر أصبحت تاجراً محترماً وموسراً، بعد أن كنت فريسة للسجن، أنها قصة جميلة، وبذيلة، سوف أشرحها لك بالتفاصيل، لأننى واثق أنك ستفهمها. باختصار لقد كسبت كل أموالى بطريقة حمقاء وبالفة العبثية، حيث تفتحت عينائى على جنون العالم. لذا فأتأ أريد أن أضع هذه النقود فى خدمة هدف عقلانى عادل. أريد أن أساهم فى جنون العالم. هل تفهمنى؟

— طبعاً، سبب عقلانى، أنت لايمكن أن تعبر عن أفكارى أحسن من هذا.
— من غير المجدى أن أخبرك اننى اضع كل ما أملك تحت أمرك. أنا متعجل لمعرفة مشاريعك؟

رفع يده ووضعها على ذراع هيك بحركة أخوية.

سكت هيك، ليس لانه لا يوافق على هبة التاجر. ولكن بكل بساطة، لأن قلبه يبدق فى كل مرة يتأكد فيها من أخلاق هذا الرجل الذى لا يكاد يعرفه، إنه يقدم له ثروته، أى نوع من النوافع تدفعه كى يتصرف بمثل هذه الصورة، هذا التاجر الامى كان بالتأكيد شخصاً غريباً، ماذا قال؟ إنه يساهم فى جنون العالم.

خاف هيك من هذا الصفاء الذى يفوح من روح خشنة. هل قابل صديقه لتوه؟ وهل هو فى حاجة اليه؟ وأي متعة تنتظره من هذا الهدف الاحمق الذى يستعد من أجله التضحية بثروته؟ ثروته؟ لم يطلب منها هيك شيئاً. هل يفكر أن يبذل ثروته بدافع التسلية؟ ليس عليه سوى أن يحتفظ بها، والعرض مجانى.

سحب خالد عمر يده فلمعت الخواتم لحظة فى الضوء. هنا عاد النادل اليهما. قال هيك وهو يمسك الكوب الذى وضعه النادل على المائدة:

— لنشرب نخب مفاهيمنا المشتركة.

رفع خالد عمر كأسه ثم طرقت الكأسين.

كان الشارع مزدهرا بمتنزهى المساء الباحثين عن الهواء المتعش بعد يوم قاتظ، حيث يمر بعض الموظفين المتحجرين المتعجرفين، أرباب أسر، «متكابرين» تتبعهم زوجاتهم وأبنائهم. وأيضا ثنائيات من الشباب يمسك كل منهما بيد الآخر، بمهابة واضحة، لكن أحد من رواد «الجلوب» الجالسين على الشرفة لم يلتفت الى هذا الموكب الكئيب، ليس من أجل هذا الحشد البشرى الذى يهوى هناك، فالكل ينتظر بصبر نافذ مرور انتشى ذات تكوين جسمانى متميز، قادر أن يثير فيهم المتاعب الشهوانية، ومن وقت لآخر ينطلق صخب حاد وكأنة صفارة إنذار تعلن اقتراب القرام القائه فى الضواحي، السائقون يرتدون زيهم الأكثر تميزا فى الزحام، يسبون الحشود المتكاسلة التي تموج وسط الطريق، التي تنشد النسمة الخفيفة القادمة من البحر، حاول هيكل دون جدوى أن يميز فى هؤلاء الرعاع الوجه الطيب والسمح لبعض المتشردين الهاريين من برائن الشرطة، لم ير أحداً منهم، حقا، لقد أصبحت شوارع المدينة منحوسة بشكل غريب، لقد خلت إلا من الوجوه الشعبية، إنهم الحزانى والمحتاجون، فالمرء محاط فى كل مكان بالموظفين، لم يستطع هيكل أن يمنع نفسه من التفكير فى الرد على الشحاذ عندما سألته أن يأتى إليه كل شهر ليأخذ المبلغ الذى خصمه له، لقد رفض بذلك أن يجعله موظفا، أى أن يصبح شحاذا مألوف الوجه، أى أهانة إذن أن يكون من هذه الذرية التي لا تعرف سوى ممارسة الوظائف، أن تتبع الروتين العام، نفس الحكايات المألوفة لهؤلاء الموظفين الصغار الذين عرفوا بالقدر على العمل والمتابعة، إنه من الصعب التفكير فى أن الجنس البشرى لم يفرز سوى رجال عظماء، وموظفين صغار يتطلعون للترقية، وفى بعض الحالات الضرورية، يمكنهم أن يقتلوا الآلاف من أمثالهم، من أجل الحفاظ على وظائفهم والطعام الأنسب لأسرهم، هذا الشيء الوغد الذى يدعو للرثاء والذى يفرض الإحترام وإعجاب الجماهير.

دفع خالد عمر الهواء بيده كى يصطاد ذبابة حطت على طبق المشهيات، ثملقى على هيكل نظرة خالية المعنى، لماذا سكنت رفيقه؟ لماذا راح يهتم بحركة الشارع؟ هل يتحدى نفسه؟ فكر خالد عمر طويلا فى الطريقة التي دار بها الحوار،

وتسائل اذا كان هيكىل سيلبى مطالبه فى هذا اللقاء الاول. أعطاه سكوته الشعور أنه متردد فى كشف مشاريعه له. فافتقاد الثقة يؤله. ألم يضع كل ما يملكه رهن إشارته؟ أمجبه البرود الظاهر لهذا الشاب، وغريزية أساليبه، وابتسامته الساحرة وأزساره إنه يذكره بالعلامات الجلية لروحه الأرستقراطية، لاشك أن خالد عمر معجب بهيكىل بلا حدود من خلال كل ما قاله له، فهو ينتظر أن يوافق أن يمنحه ثروته واخلاصه، قال هيكىل:

- أشكر لك كرمك، من المؤكد أنني فى حاجة لمساعدتك، لكن هذا لن يتطلب ثروة كبيرة، يكفى مبلغ قليل للغاية.
- مهما كان فأتا تحت أمرك.

عقد هيكىل ساقيه، وشرود لحظة، وقد ركز عينيه على جموع المارة، ثم استدار نحو خالد عمر، وقال:

- حسنا، أعتقد أنني لست فى حاجة أن أعرفك، ان الرجل الذى يحكم هذه المدينة الآن قد تجاوز حدود الرعب والغباء.
- أعرف، أعرف أيضا أن كل العصابة السيئة من رؤساء الصحف يتبعونه ولا يتوقفون عن التفتنى بتملقه.

- ليس هذا رديئا ، بل على العكس، فمهمتنا ستكون سهلة ، لماذا إذن؟
قال هيكىل سهلة لأنها ستكون عادية، سنفتنى متملقين هذا المحافظ البشع وسوف نتجاوز غباءه.

- لقد علمت من كريم أن الصحف قد توقفت عن نشر رسائلك التى تكتبها للقراء المتحمسين، على كل فهى فكرة رائعة، اسمع لى أن أهنتك.

- الأمر لا يتعلق بهذا، سوف نفتتح مؤسسة دعاية من طراز فريد، شىء ما لايمكن للبوايس السياسى أن يلحظه، سنبدأ بطباعة إعلانات عليها وجه المحافظ ، سنجبر كل السذج أن يضحكوا منه ويمسادة أصدقائنا، سوف نعلق هذه الإعلانات فوق حوائط المدينة، هل يمكنك أن تقوم بعمل من هذا النوع؟

— طبعا، ستعتقد كل المدينة أن كل هذه الإعلانات مطبوعة بواسطة خدمات البلدية المعنية بالمطبوعات.

— ومن يشك؟ هل رأيت أبدا ثوارا يناضلون محافظا أو يتحدثونه وهم يتغنون بمديحه، هناك شيء آخر وهو أن المحافظ نفسه سوف يتخيل أن هذا قد تم بواسطة أحد أتباعه المخلصين وسوف يرضى غروره بالتأكيد، انه شديد الغباء كى يفهم الامر. وحتى عندما يفهم، سيكون من الصعب أن يمسك شيئا، وسوف نستمر فى التملق بكل جدية، ولن تكون هناك أى مخاطرة، وإن يجرؤ قط فى القبض علينا، أنا مستعد من ناحيتى أن أقول عنه كل ما لدينا أمام أى محكمة، ولكن هذا لن يحدث.

قال خالد عمر: كلماتك تملؤنى بالأمل، بالله، لا أعرف ماذا أقول..

رد هيكل ليس هذا كل شيء، فهذه الإعلانات ليست سوى بداية، فأننا لى طرق أخرى سوف تجعل المحافظ مشهورا فى كل البلد، سوف يصبح مثيرا للسخرية لدرجة أن الحكومة سوف تضطر أن تخلعه.

تملأ خالد عمر على مقعده، وقد سيطرت على نفسه شيئا فشيئا مشاعر رقيقة، لقد بدا وكأنه اكتشف تصدعا فى عقل هيكل. هذا التصدع ذو أهمية كبرى، يستهدف لتدمير شخص له مكانته كالمحافظ، أليس هذا متفق مع رغبته؟ ألزمت هذه الفكرة الصمت للحظة.

— أخبرنى، هل سنراه حقا وقد تم خلعه؟

— طبعا، لا، أين ستجد رجلا أنسب منه سخرية، للأسف سوف تضطر أن تفعل هذا، فليس لدينا الخيار.

قال له خالد عمر: احس أننى سأتسلى على أحسن ما يكون.

التفتت امرأة تبدو غانية، ذات ثديين ناهدين فى مشهدهما وكأنهما سفينتان فى أعلى البحر، ونظرت الى شرفة المقهى. مرت وأطلقت نظرة جانبية داعرة، فاقتفى زبائن المائدة المجاورة أثرها على الفور عبارات الغزل كأنهم عارفون ببواطن الأمور، تكلموا كأنهم جنود داخل خنادق أكتشفوا الحقيقة الاساسية

لعالمنا، ثم راحوا يطلقون التساؤلات والتعابير الغامضة المجسدة، وأخذوا يطلقون انتقاداتهم حول أدق التفاصيل الحميمة لجسد المرأة المجهولة. قال هيكل:

– ألا تبحث النساء على تسليتك بما فيه الكفاية؟

رد خالد عمر: أحب النساء. ولكن هذا لا يقارن بمتعتي فيما يتعلق بهذه الشهوة.

– هل أنت متزوج؟

– حسن. بصفتي تاجراً محترماً يجب أن أشرح لك أنها ليست نفس الطراز دائماً. لست من الاثرياء الاغبياء الذين يغيرون سياراتهم كل عام ويحتفظون بنفس المرأة. أنا أغير المرأة كل عام، وليست لدى سيارة.

قال هيكل. أنا سعيد بهذا لأجلك.

– أحياناً، أتخلص منهن في فترة قصيرة. صدقني، فالنساء تصيبهن الشيوخ أسرع من السيارات.

ثم أكمل بعد لحظة:

– لنعد الى عملنا، ماذا تطلب مني؟

قال هيكل: كل ما أطلبه. ألا تعتقد أنه من الصعب العثور على رجل له مصادره مثلي. هاك. فأتنا في حاجة الى مطبعة أولاً. ثم الى مكان سرى نقوم فيه بعملنا. هل يمكن أن تدبر لي هذا؟

– كل ماتريده. ستكون لك المطبعة خلال يومين أو ثلاثة أيام على أقصى حد. الا يمكن أن أفعل شيئاً آخر؟

– الآن، هذا يكفي، أشكرك. فسوف أتكفل بالباقي.

– اعتقد أنك ستكتب نص الإعلانات بنفسك.

– لا . ليس أنا، سوف أكلّف به أحد أصدقائي، انه ناظر مدرسة، يدعى «عرفي» ، املك تعرفه.

- أعرفه جيدا . فأنا أحد تلاميذه، وقد تعلمت القراءة في مدرسته.

هتف هيكل بإعجاب غير مصطنع: هل ذهبت الى مدرسة عرفتى . بشرقى
أنت راجل رائع، لماذا وددت تعلم القراءة؟

لقد غار التاجر من رؤية كريم أو أى شخص من أصدقائه المتعلمين، وقد
راحوا يقرعون مقالات الصحف، مما جعله يحس أنه خارج اللعبة. وكان عليه أن
يتوسل اليهم أن يقرعوا له مقاطع من الصحف التى تجعلهم بالفى السعادة. ولكن
بالتأثير يمكنه أن يضحك بدوره وربما أكثر من الآخرين، لكن هذه البهجة المتأخرة
لم تكن تنقصها المرارة ، وقرر التخلص من هذا الامر. بأن يتعلم القراءة، أراد أن
يتعلم بلا وساطة بعيدا عن الخسائس العالية التى يمارسها طغاة السلطة:

- أحب دائما أن أتحقق من كذباتهم. إنها متعة تأخرت فى معرفتها.
للأسف، فأنا لم أتقدم كثيرا، فأنا تلميذ بليد للغاية.

- هل كنت تذهب هناك بانتظام؟

- لا. بين وقت وآخر. كنت أحب عرفتى كثيرا. هل تعرف أن أمه أصابها

جنون؟

قال هيكل: أجل. كنت هناك. فمئذ بضعة أشهر أصابتها حالة فراغ، نوع
من الجنون.

- ليس الامر جسيما .

- الامر لا يمنع أنها تشكل بالنسبة له عبئا ثقيلا. فهو لايمكنه أن يعتنى
بها. وفى نفس الوقت يهتم بتلاميذه، قبل أن يحدث هذا. كانت تساعد فى عمله،
إنها امرأة مثقفة، صدقتى، فصديقنا يعيش فى موقف مأساوى. رغم أنه لا يود أن
يمثل، اقترحت عليه مرات عديدة أن أرسلها على حسابى الى مستشفى
متخصص لعلاج هذا النوع من الجنون. ولكنه رفض بإباء. لم أود أن ألج أكثر
خشية أن اجرح مشاعره. انه أمر بالغ الحساسية. ألا يمكنك أن تناقشه فى هذا؟
أرغب من كل قلبى أن أقدم له يد المساعدة. أنا واثق أنه سيستمع لك.

استغرق هيكل وقتاً في التأمل. فقد كان يعرف عرفى منذ أمد طويل ولا
يجهل كل الحب والعاطفة التى يكنها ناظر المدرسة لأمه. فهو يريد لها قريبة منه
حتى وهى مجنونة.

- أعرف عرفى جيداً، انه رجل بالغ الذكاء. يزعم أن أمه ليست مجنونة.
ومؤمن بأن فى العالم الذى نعيشه يرى البعض أن الجنون أمر عيى. أعتقد أنه
على حق.

- سمعت أنها كانت تقوم بالقاء بعض الدروس للتلاميذ أثناء غياب عرفى.
وكما يبدو فالاطفال لم يفهموا شيئاً، لقد اعتقدوا أنها مريضة.

قال هيكل. لكننى بصفة شخصية كنت أحب رؤية هذا المشهد.

بدا خالد عمر مذهولاً من هذه السخرية:

- أرى أنك رجل متطرف فى افكاره. وأنا أحب ذلك.

- لماذا أوجد فرقاً بين جنون اصدقائى، وجنون الآخرين ؟

قال خالد عمر وهو ينفجر ضاحكاً فهمت

لكن ضحكته هذه المرة لم يكن لها صدى بين زبائن المائدة المجاورة. لسبب
غامض، فكل الزبائن قد بدوا فى حالة شرود ، لانه لم تمر أى امرأة أمام المقهى
منذ قرابة ربع ساعة..

(٦)

بدا الصمت الذى ساد الفصل مريكا من خلال صوت متميز استطاع عرفى أن يعرفه نون أن يرفع عينيه، انه أحد التلاميذ، يجلس فى المقعد الاخير يقرقر لب البطيخ المحمص، منذ لحظة، تردد فى أن يتدخل خشية أن يثير انتباه التلاميذ الآخرين الذين أثقلهم حر الظهيرة الميت. فهو دائما مستعد لأن يثور عند أقل حركة ، لاشك أن الشراهة الصاخبة لهذا الصبى الجرىء تمنعه أن يركز، لقد تشتت إلهامه، إنه فى حالة كتابة نص الإعلان الذى يمتدح منجزات المحافظ، والذى يود هيكل أن يعلقه على حوائط المدينة. وتحت مظهره الرقيق والهادئ، ابتهج داخليا وهو يقوم بصياغة المديح لتلك الشخصية المعروفة ، فهذا العمل المهم، بالمعيار الذى يكتب به، يأخذ شكل خطبة عصماء مخصصة للقراءة فوق مقبرة بطل همام. كان عرفى مقتنعا بمهمته كمداخ، والتى جعلته يؤمن بكل التملقات الحمقاء التى يوجهها للمحافظ، وإطبية قلبه، راح يضخم كل السمات والفضائل الخيالية مستخدما كل التعبيرات التى تستخدمها الصحف حين تمجد المجرمين المعروفين، الذين خاضوا الحروب العديدة بلا وعى .

من جديد، أصاب الصوت الساخر اذنه، توقف فى وسط جملة، ثم رفع رأسه، وبدا كأنه قد قرر أن يضع نهاية لهذا التلميذ العاصى أثناء حصّة الظهيرة المقدسة.. لمح المذنب بعينه، انه «زرطة» المرعب، غلام فى الثانية عشرة من عمره، شخص لا يباريه أكثر عباقرة الكذب فى هذا القرن. هنا تساءل عرفى عما إذا كان لديه فى الفصل وزير من حكومة السلطة. لاشك أنه كى يتخلص من سطوة كذبات

هذا الطفل ستكون خطئاً قدريا . كان عرفى يعرف أن ليس عليه سوى أن ينتظر إشارة لكى يستيقظ من غفوته ، أطلق التنهيدة بصبر نافذ لسلوك تلميذه. ومن قمطره القائم فوق المنصة حيث يسيطر على الفصل الذى يوجد به عشرون ولداً وينتا من السادسة الى العاشرة - انكفئوا ينسخون فى كراساتهم بعض اسماء الإشارة المكتوبة فوق السبورة السوداء . هذا الامتحان كان اختيارياً، انكفاً أغلبهم على مقعده، لا يحسون بطعم الحرص على المعرفة، والسبب هذه الحرارة الخائقة. كأنهم مضربون ومتبلدون، تركوا الذباب يملأ وجوههم بلا مقاومة. فالفصل جزء من مسكنه الواقع فى الدور الأسفل لمنزل قديم يشغله عرفى مع أمه. هذه الغرفة الواسعة بها منافذ مفتوحة على الرصيف، وتطل على حارة تجارية، وكالعادة فإن مرور جموع المارة الذين لا يرى منهم سوى السيقان، يثير عدوانية الصبية، الذين يتسلون، وقد تسلحوا بالنبال، بأن يتعاملوا معهم كأهداف، ولكن فى هذه الساعة تبدو الحارة خالية. فلا أحد يجرؤ أن يلقى نظرة فى هذا الحر.

أخرج عرفى منديله من جيبه، ومسح جبهته نصف العارية بصلعته المبكرة، هذه الصلعة هى واحدة من علامات كمدرس، لم ينقصه أبداً أن يعتنى بها وأن يلمعها وكأنها قطعة من الأثاث الثمين فى مساكن الفقراء، هناك اعتقاد فى الحى، أن سقوط الشعر دليل على الحكمة والمعرفة. تبنى عرفى هذا الوهم وهو يضع رأسه دائماً فوق دماغه عندما يكون فى حضرة الآباء المشعرين الذين يتعاملون معه، ككشاب بلا مستقبل، ولكنهم لم يتوقفوا عند العلامات الخارجية لعبقريته الفكرية. كان عرفى أيضاً ضعيف النظر للغاية، فقد كان يرتدى نظارة من الصليب المطعم بزجاج سميك. تبدو النظرات خلالها وكأنها تمر من مرشح قوى، ناظر مدرسة أصلع يعانى من ضعف البصر، انه أكثر حرصاً مما يجب حتى يكسب الثقة من جموع الأميين، اقتنع بهذه المسألة وأن رجلاً أعمى لا يمكنه أن يضمراً شراً.

بالمقارنة بخارج الفصل، بدا المكان أشبه بواحة منعشة، كان عرفى يحب صفاء ما بعد الظهيرة بعد أن ينام الأطفال، الذين أجهدهم الحر، واضعين هذا لتناعبه، يمكنه إذن أن يتفرغ للمتعة الفكرية، فبعد سنوات قضائها فى المكاتب

المتربة، بإحدى الوزارات، انتهى بأن وجد وظيفة مناسبة لطبيعته، وطيبته، ورقة سماته، جعلته دائماً يفضل صحبة الأطفال عن الكبار، في الحقيقة، فقد كان الكبار يخيفونه، ففي كل واحد منهم يرى قاتلاً شرساً، وعرفى في حاجة إلى أن يحيا بلا لف ولا دوران، ولا مماحكة، وخاصة أنه قادر على الغفران، ولكن كيف ينظر للكبار؟ إنهم مملعون بالأنانية، والغباء والقيح، والطموح الخائب والعسر مما يفضلُه عمن في مثل سنه، الطموح، إنهم جميعاً معذبون بالطموح، الوصول، الوصول الى ماذا؟ ثم عندما يصلون إلى المجد أو المال، فإنهم يصبحون أوغاداً ثقلاء، وجوشاً تعج بالعجرفة، غير قادرين على الإحساس بأقل ذرة من الحس الإنساني، أما ما يعجب عرفى عند الأطفال، فهو هذا فقدان الشامل للطموح، فهم يعيشون بسعادة في حياتهم اليومية، ولا يطمحون سوى في أن يظلوا أحياء، ولكن كم يوم هذا؟ سرعان ما تمر الطفولة ويتسرب الشباب الرائع، هذه الحقيقة الأكيدة تملأ عرفى بالمرارة.

فهو والأطفال سيصبحون فيما بعد رجلاً، وسوف يستكملون مسيرة الذئاب، وسيخرجون من حبسهم الملىّ بالنقاء، ليضيعوا في خضم القتل الكثيرين. جاءت فكرة فتح مدرسة خاصة يوماً كرد فعل ضد التعليم الرسمي الذي يرسخ السفالة في أذهان الأطفال، والخسة والدناءة لمجتمع عفن كنظام التعليم إنه إهانة للأحلام البريئة والساحرة لعالم الطفولة، كان عرفى يتمنى، منذ أمد طويل، أن يكون لديه شيء يقوله للأطفال، وليس الكبار في حاجة إليه، لم يتأخر في تنفيذ مشروعه، وبمعاونة أمه التي كانت تساعد، من ناحية أخرى في مهمته، خصص حجرة من مسكنه بالنور الأرضي، وأثاثها ببعض المقاعد، وبسبورة سوداء وكى يعطى عمله جدية،.. أوصى رساما من الحى بعمل لوحة ضخمة، راح يعلقها أعلى باب المنزل، مما أثار انتباه عائلات عديدة من الحى لهذا الكهف العلمي، وخاصة المصروفات المتواضعة التي يطلبها منهم، فراحوا يرسلون أبناءهم قبل أن يجف رسم اللوحة تماماً، ووقعت بعض الأشياء الغريبة، فعلى عكس التوقعات، فإن الأطفال بنوا مخبولين بمدرستهم، وعاندوا الآباء والأمهات كي يذهبوا ليجلسوا فوق مقاعد هذه المدرسة الغريبة، أدهش هذا آباءهم بشدة - وبألهم من أناس طيبين

جهلاء - لم يشكوا قط في أن ذريتهم لديهم حمية التعليم، هؤلاء البائسون يجهلون أن أطفالهم يعيشون هنا في جو فوضوي يتناسب مع أنواقهم وأن عرفى نفسه رغم صلغته ونظارته الضخمة ذات الشريط الصلب، كان حكاًء خطيراً، فهو يتكلم إلى الأطفال ويبوح عن مشاعره بلغة تختلف عن لغة الكبار، كان يلقتهم مبدأ واحداً وهو: معرفة أن مايقوله الكبار مزيف ولا أهمية له بالمرّة، وهكذا ففي فصل عرفى يوجد تشكيل جيد من الأفكار العقلية لايمكن لأى سلطة أن تنطق بها، وكم أحس عرفى نفسه أنه يختنق لسماع أفكار غريبة في أفواه التلاميذ بمجرد خروجهم من الطفولة.

ها هو الصغير «زُرطة» يتصرف الآن بلا حياء بأسلوبه الفظ، إنه يبصق بقايا اللب الذى ينتهى من قزقزته فوق الأرض، هذه الأصوات أثارت عرفى، لأنه كان منهمكاً فى عمله، والآن لقد حان وقت التدخل، تكلم بصوت رقيق لكنه حازم: - هيه ... يا صغير، اذهب وقزقز لبك فى الشارع.

ابتلع «زُرطة» اللبة التى كسرهما لتوه بين أسنانه وراح يتبع حركة ذبابة تطير أعلى السقف،

أمسك عرفى المسطرة الموضوعة على قمطره، ثم لوح بها فى اتجاه الطفل: - هيه، يا زُرطة، أنا أتحدث إليك،

بدا «زُرطة» على وشك البكاء وقد بوغت، بدا أشبه بخنزير أكل جيداً، إنه أكل نهم قادر على التهام كل مايقع بين يديه، لقد وصل إلى درجة بشعة من البدانة لاتناسب سنه، قام كى يرد:

- فى الشارع، يا أستاذ، فى هذا الجو، بشرفى أنت تريد موتى،

- هيا، اذهب، أرحل،

- ولكننى جوعان، يا أستاذ، فأنا لم أكل منذ ثلاثة أيام،

قال عرفى وهو يهز رأسه: حفظك الله، ماذا ستصبح بلا كذب، للأسف، سوف تتركنا قريباً، فقد أصبحت رجلاً،

بدا هذا التلميذ من الأستاذ لزربة قاسياً وظالماً، تملل، لصق يديه على بطنه. كأنه يحاول أن يخرس الجوع الذي ينهشه، قال منتحباً:

— لماذا تشوه سمعتي يا أستاذ، ماذا فعلت كي أستحق هذا؟

توقف التلاميذ القلائل، الذين كانوا ينسخون الكلمات المكتوبة على السبورة السوداء في كراساتهم، عن عملهم، أما بالنسبة للآخرين، فقد استيقظوا وهم يتثابرون وشرعوا في تأمل زميلهم، الذي أصبح هدفاً للمدرس، شرح عرفى بهدوء:

— سأقول لك لماذا يجب أن تتركنا، أولاً لأنك أصبحت بديناً ثم لأنك تكذب مثل الرجال الذين أصابهم الثراء، لا يهمنا أن يكون لدينا شخص مثلك بيننا، فكذلك لا يمكن أن يبقيك هنا أبداً، لقد حان الوقت كي تغشى العالم، الآن كف عن قزقة هذا اللب، عليك أن تنام مثل زملائك.

عانى زربة، ففكرة ترك المدرسة قد أثرت فيه بقوة: النوم لا يغلبني، ولكن أهدك ألا أقزق اللب، لقد قطعت شهيتي يا أستاذ.

قال عرفى: أرجو أن يكون هذا للأبد.

بدأ بعض التلاميذ في تأمل زربة وهو يكاد أن يصل إلى حد الترهل، ثم طلبوا منه بكل جرأة أن يشاركوه لبه، فساعت الأمور وأصبح على عرفى أن يضع حدا لهذه الغارة المفاجئة، وهو ينطق بالجملة الحاسمة التي يستخدمها في مثل هذه الحالات:

— إذا لم تلتزموا الهدوء، سوف أطردكم جميعاً وأغلق المدرسة..

وكأنه هددهم بالموت، أحدث التهديد أثره، وفي الحال ران صمت في الفصل، واستطاع عرفى أن يعيد صياغة نصه، فانتهى منه، أحس بالمتعة لأنه أتقنه، وردد بعض الجمل للتأكد من معناها اللغوي، والصفات المفرطة وهي مطبوعة ومعلقة فوق جدران المدينة. إنه نداء من ميت، لقد توغل عرفى في أغوار الفكرة التي أسفرت عن عقل هيكلي: من أجل خدمة الثورة، فإن السلاح المرعب هو السخرية. والسخرية عند عرفى سائدة في كل مكان، فهو منذ بضعة أشهر يعاني من جرح دام يطفى على طبيعته الماء، أعتمد أن أي سخرية لا يمكنها أن تخفف

عنه: فقد أصبحت أمه مجنونة، وتحولت إلى نوع من الكاريكاتير البشرى. ومنعه إشفاق البنوة أن يتصرف كساخر على هذا الوجود المخيف، فإذا كانت هناك امرأة أو أم مليئة بالرقّة وإنكار الذات، فلماذا هذا الخداع؟ أمام هذا الجسم الواهن، والوجه المثير للعاطفة الذى يبدو كأنه يفوح يوماً وراء يوم أكثر فى العتمة، لم يحس بالقدرّة على الضحك. أجل، إنه فى بعض اللحظات، يتخلى عن روحه الساخرة، ويسقط فى هلع الصخب القادم من أعماق الخلويويحس أنه : سيفقدّها عمّا قريب، سوف تسكن فيه المعاناة كاملة، وسيفقد حسه الساخر شيئاً فشيئاً، وسيصبح فريسة للنحس واليأس. فالإنسان مسكين حقاً، غير جدير أن يبلغ مدارك الطفولة التى يحبها كثيراً، أحس أن لديه الشعور بالخيانة ليس فقط بعقله النقى. ولكن تجاه هيكل ومجموعته الساخرة، فرغم أن هيكل ينظم هذا الموضوع الأبكم الأكثر اكتمالاً، فإنه مخدوع بالتاكيد، فلا شيء ينفلت من الرقّة البادية التى تبدو فى نظرتّه وكأنّها تخلصك من كل الشوائب الفاسدة فى روحك، وكأنّه من الأفضل أن تغفلك بحبها المتكابر، لم يساوره أى شك فى أن هيكل يريد أن يراه يسخر من جنون أمه. انتظر منه هذا الدليل الأكيد، وكأنّه يبلغ شرفاً كبيراً، أو نوعاً من المتعة الخارقة . إذن لماذا يبدو مغموماً ؟ هل بسبب جنون العالم، فى كل لقاء يسعى عرفى أن يكتشفه وهو يراقبه . إنه موقف سخيف ومشين ، حيث يملك هيكل أسلوباً جميلاً وهو يبدو طيباً وكأنّه أخ . بينما عرفى يتكدر من وساوس العالم القاسية .

دقت خطوات فى الممر ، رفع عرفى عينيه نحو باب الفصل، بقى متجمداً لثوان. منتظراً قلقاً ، توقع رؤية أمه، فى مكانها رأى كريم فابتسم له، تخفف رد الشاب على ابتسامته بحركات تعنى أنه ليس لديه ما يزعجه وأنه ينتظر أن يكلمه فى نهاية الحصّة، ثم وبخفة، توجه على أطراف أصابعه نحو مقعد وجلس إلى جوار فتاة صغيرة صبغت شعرها باللون الأحمر الطوبى، وترتدى فستاناً برتقالى اللون ، فهدت كأنها ثمرة غريبة الشكل، كانت جميلة وقد اعتاد كريم أن يغازلها . احتفظت الفتاة الصغيرة بعينيها منخفضتين وتصرفت كأنه غير موجود، داعب كريم شعرها، وانحنى نحوها وهمس فى أذنها بنبرة عاطفية:

— إذن، فأنت تتعلمين ياروحى؟

لم ترد الفتاة الصغيرة، كشرت ، وأدارت رأسها وكأن ذبابة حلفت حولها،
أكمل كريم:

— ماذا هناك، هل هو خصام أم ماذا؟ ردى ياروحى.

قالت الفتاة، دون أن تستدير بصوت منخفض ومبتهج:

— أين الهدايا التى وعدتني بها منذ فترة طويلة يا «بكاش» ؟

انتحب كريم بسخط ظاهر:

— هكذا النساء، كنت أعتقد أنك تحبيننى لذاتى. أه. كم أنا بائس.

واستند على القمطر ورفع يده إلى جبهته وأطلق تنهيدة عميقة. وهو يراقب
الفتاة من طرف عينيه. وانتظر أن تتبعه ولم تتأخر. أحس بالفتاة تتحرك ثم راحت
تلمس ذراعيه وقالت فى نفس واحد: لكن أنا أحبك.

أحس كريم بالبهجة داخليا. فهذه الملهاة العاطفية يمكن أن تجعله سعيداً،
فالنساء مهما كن، فى السابعة أو السبعين، حساسات لنفس التملق، والزمن
لا يدخل فى الحسبان. يمكن اغواؤهن بنفس الطريقة، داعب شعر الفتاة الصغيرة
وبحركة رقيقة متناغمة، ثم ألقى نظرة على الفصل. بدا له أنه من الرائع أن يجلس
ممدداً فوق مقعد المدرسة، وأحس أنه يتصرف كتلميذ. فتح كراس الفتاة الصغيرة،
ثم بدأ فى الكتابة. بحروف كبيرة مثلاً شعبياً عن جحود البشر. «علمناهم الشحاتة
سبقونا ع الأبواب». كتب كريم الجملة عدة مرات على طريقة تلميذ بليد. لقد نسى
سنه، وسبب حضوره إلى هذا المكان، ولم يفكر سوى فى الفتاة الصغيرة التى
ترقبه جامدة، لم ترفيه سوى تلميذ ذكى.

ظل هكذا ربع ساعة قبل نهاية الحصّة. ولكن عرفت اختصر الجلسة:— هيا
يا أطفال، أنصرفوا.

احتج بعض التلاميذ الذين استيقظوا مبغوتين الوقت لم ينته بعد يا
أستاذ.

تدخل عرفت: لا اعتراضات. لقد رأيتمكم بما فيه الكفاية اليوم.

انتهى الأمر بالتلاميذ، وقد أحسوا بموات روحهم ، حاولوا أن يبذلوا ما بوسعهم بأن جمعوا متعلقاتهم وتركوا الفصل، ومع ذلك لم يذهبوا بعيدا، تناثروا في الحارة باحثين عن ركن ظليل، على مقربة من المدرسة، وما إن غادر آخر تلميذ، حتى نزل عرفى من فوق منصته واستعجل اللحاق بكريم، الذى لم يغادر بعد مكانه، قال وكأنه يعتذر:

— ألن أجعلك تنتظر طويلا؟

صاح كريم : ليس لىّ ما أفعله، لكننى متلهف لقراءة نصك، أتمنى أن تكون قد انتهيت منه .

رد عرفى، وهو يخرج ورقة مطوية من جيب سترته الداخلى ويمدها لكريم:

— حالا ، امسك .. واقرأ .

— هل أنت سعيد؟

— إنه جناب المحافظ الذى يجب أن يسأل هذا السؤال، فليست سوى كاتب متواضع لسيرته،

وكانه يريد أن يتمتع تماما بهذه الملذات التى سببها هذا النص. بدأ كريم فى اتخاذ وضع مناسب، ثم فرد الورقة، فما قرأه قد جعله تقريبا معتوها، يقال إن عاصفة قد هبت عليه، اهتز بضحكة مجنونة لا مثيل لها، أما عرفى فلم يتوقع مثل هذا النجاح، أحس بفخر شديد، اندهش قليلا، فبعض الأطفال، الذين فوجئوا بهذا الضحك الصاخب، انطلقوا من ظل المنازل وجاعوا كى يتأملوها فى الدور الأرضى، وعند رؤية هذا الشاب الوغد، تأهب الجميع للسخرية، هدا كريم بسرعة، وراح يجفف عينيه من دموع الفرحة التى ملأت خديه ووقف أمام ناظر المدرسة، قال وهو يسيطر على ضحكته :

— إنه أمر شديد السخرية، فبالإضافة إلى صورة وجهه، سيكون الإعلان مثيرا،

سأل عرفى : هل يعجبك حقا؟

— إنه بكل بساطة متوحش، أريد أن أريك إياه مطبوعا،

— هذا شأنك، لكن أخبرنى : هل صحيح أنك تعلمت الطباعة؟

— إنها مجرد صدفة، أنت تعرف أننى قد تعلمت بضعة أشهر فى مجال الطبوغرافيا فى مطبعة، فى الفترة التى اختلطت فيه بالناس، وهكذا مارست مهنة عديدة.

جلس عرفت فوق مقعده، مدد ساقيه التى أصابها تنميل من بقائها فى غير حركة، ثبت ناظره على حذائه الرث وأحس بشيء غريب، فواحدة من الفردتين أطول من الأخرى، ولبرهة غزا روجه غموض لهذا التباين، ثم عاد إلى رشده وبكل مودة. وضع يده على كتف الشاب، وقال:

— أنت صغير جدا، وتريد أن تدافع عن مصالح الشعب، أليس كذلك قد يقودك هذا إلى السجن.

لم تكن تلك هى المسألة. ولكنه أمر بسيط. لقد زعم أن الدفاع عن مصالح الشعب يمكن أن ينتهى بالمرء فى السجن. رد كريم:

— طبعا. ولكننى لن أندم. لأننى فى السجن اختلطت بالشعب، أنت تفهم أنه فى مصنع ما يعامل البشر كالحوانات، فليس لديهم الوقت للحديث مع زملائهم، من ناحية أخرى، فإن موضوعات الحديث الوحيدة تتعلق بالعمل، أو بالبلاد الفقيرة أو المرض الذى يبذر المصائب فى الأسر، لاشيء سوى الموضوعات الصعبة، بينما فى السجن هناك وقت فراغ إنهم يتحدثون من أجل متعة المعرفة. إنه لأمر غريب، لكن السجن أقل بشاعة من أى مكان آخر أنت تعرف أنه قبل الذهاب إلى السجن كنت أؤمن أن الشعب ذا طبيعة عبوسة وأنه لا يعرف سوى المساةة؟ لم أكن أعتقد قط أنه ملئ بروح الفكاهة، وملئ بخفة الظل. أجل اكتشفت هذه الحقيقة الأساسية لشعبنا فقط فى السجن. وعرفت أن كل أفكارى عنه كانت مزيفة.

وبصفتة مفكرا جديرا بهذا الاسم. كان عرفت أيضا فى شبابه مناضلا من أجل مصالح الشعب. لكنه أخفى مشاعره وخجله ورعبه عن الناس، قابتعدت عنه أنظار الشرطة لأنه لم يتميز بمظهر الثوريين رغم حماسه للثورة فلم يعرف السجن قط، ولهذا السبب، فإن تجربة كريم تسمح له أن يتعلم بعض الوقائع

المجهولة بالنسبة له، أثاره فضوله، زاد من ضغط يده على كتف كريم وكأنه يشجعه على متابعة كلامه.

- قص على هذا.

رد كريم: حسنا، لقد رأيت الشعب الذي أرغب في رؤيته، بمعنى أنه معجون بالحقد ويحلم بالانتقام، أردت أن أساعده في انتقامه، كنت أعتقد أنه مستسلم للقهر، لكنني وضعت في حساباتي أنه أكثر حرية مني، لا يمكن أن تتخيل النكات التي ألفتها عن هذا الموضوع، عندما أردت أن أشرح لهم أنني في السجن لأسباب سياسية، كانت كارثة، اعتبروني روحا ضييلة أنا الذي كنت أفكر أن أعلمهم موقفى الثورى، عاملوني كعميل مدسوس من الحكومة، علمتهم الاحترام الشخصى، ظلت الحكومة بالنسبة لهم مصدرا للمزاح، وبكل ذكائى تعاملت مع الحكومة بجديّة، ووجدت أن هذا عيب مع مظهره كشهيد بالطبقة العاملة كنت الوحيد الذى يعامل الحكومة بجديّة.

علق عرقى: إنها ضربة صلفه لغرورك، اعتقد أنك كنت هناك بالغ البؤس.

- فى البداية نعم، ثم بدا لى موقفى فى قمة درجات السخرية، بدأت فى السخرية من كل شيء، فى النهاية أصبحت منشرح الصدر، فهناك شيء يبعث على الضحك، عليك أن تصدقنى، فتنوع هؤلاء الأشخاص الذين نقابلهم فى السجن شيء لا يصدق عقل، كل هؤلاء الناس لديهم عن الحكومة أفكار عجيبة، فالحكومة بالنسبة لهم عبارة عن عصاية من اللوطيين، لذا كنت مندهشا لكل ما أسمع من حوالى.

- هل كان السجن بالنسبة لك تجربة فاصلة؟

- هكذا كانت البداية، لأننى قابلت «هيكل» فيما بعد.

كان لاسم هيكل عند عرقى مكانة رفيعة، لذا سحب يده من فوق كتف الشاب وانشغل من جديد فى تأمل حذائه الرث، فكر فى المتعة التى على هيكل أن يحسها وهو يسمع اعترافات كريم حول إقامته فى السجن، هذه الحكاية ترد بالتأكيد على حاجته الأبدية للسخرية، فقد رفض عرقى أن يترك نفسه تحت تأثير سحر الهزل الغريب لهذا العالم، خاصة أنه يكافح ضد غواية الإعجاب به، لقد كان

يعرف جيدا أن العالم محكوم بأغبيائه ومجرمييه الذين يجب عدم الاعتماد عليهم. ثم إن هذا لا يشكل له أية رغبة، ولا أية متعة سرية، لقد أحس بمرارة شديدة لهذا الموقف. وعلى عكس هيكل. فقد حاول أحيانا أن يعثر فى دوافع البشر على بعض الأمور الجادة أو العادلة، وللأسف فإن الدلائل تبدو ماثلة دائما أمام هيكل، وقد يفتصر إحدها فجأة، لذا ليس عليه سوى أن ينتصر. لقد صدم عرفى وهو يفتش دوما فى كافة الأنشطة المنحرفة والفاسدة، وكأنه يخشى أقل شيء حسى متأصل داخل هذه الأقنعة البهيجة، أن يصدم بهجته. كان عرفى مجروحا دوما بهذه الأشياء الواهية. وهذا الأمل الذى يحتفظ به رغما عن كل شيء، يحكم عليه بعزلة روحية وسط زملائه ، إنهم رجال أحبهم وأعجب بهم، أخيرا، قال:

— هل نكتفى إذن هذا المساء؟ هل تعتقد أنه يمكن أن يحدث شيء آخر؟

رد كريم: سوف أطبع مايكفى كى نستطيع أن نبدأ هذه الليلة فى لصقها على جدران المدينة، علينا أن نذهب حالا. سوف تساعدنى فى تصحيح البروفات، — أين توجد المطبعة؟

— فى مخزن يقع فى حى الجمرك، يملكه خالد عمر. سوف يلحق بنا هناك مع هيكل فى المساء

— هل سيأتى هيكل أيضا؟

— بالتأكيد، يجب أن يعطينا آخر التعليمات. هل تعرف أن هذه ليست سوى البداية ، وأن هناك مشاريع أخرى فى رأسه؟ لم أتم طيلة الليل وأنا أفكر فى كل هذا.

منع حماس كريم تجاه هذا العبقري «هيكل» أن يظهر فى وجه المدرس بعض الحزن. فقد كان بالغ السعادة أن يشترك فى هذه العملية الخداعية الضخمة. فلم يعد هناك شيء آخر مائل أمام عينيه.

قال عرفى: هناك أشياء لا أفهمها جيدا فيه.

— عمن تتكلم؟

— عن هيكل، اسمعنى، أنا أول من يعرف قيمة هذه الإعلانات تربويا.

لكننى أَسْأَلُ إذا كان هيكَلُ يَنَاضِلُ ضِدَّ المَحَافِظِ فَعَلًا، ولماذا لا يَجِدُ هيكَلُ فى المَحَافِظِ باعْثًا أَسَاسِيًّا لِلبَهْجَةِ ، هل يَمْكَنُ أَنْ تَرُدَّ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ؟

- ما يَهْمُنَا هُوَ أَنْ يُهَاجِمَ المَحَافِظَ أَوَّلًا، هَذَا هُوَ هَدَفُنَا، نَحْنُ لَا نَنْشُدُ سِوَى المَزَاحِ، أَلَيْسَتْ هَذِهِ فِكْرَتُكَ؟

- مَعْذَرَةٌ يَا أَخَ كَرِيمَ، لَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَنْسِيَ الضَّحْكَ أحيانًا، أَعْرِفُ أَنَّ هَذَا ضَعْفٌ، لَكِنِّى لَا أَسْتَطِيعُ شَيْئًا.

وَرِغْمَ أَنَّهُ قَاوِمُ التَّفَكُّيرِ فى هَذَا الأَمْرِ، فَإِنْ كَرِيمٌ لَمْ يَكُنْ يَجْهَلُ شَيْئًا مِنْ المَتَاعِبِ الَّتِى تُثِيرُ رُوحَ المَدْرَسِ الحَسِيَّةِ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّهُ مَجْنُونَةً.. وَهَذَا لَيْسَ فى الوَاقِعِ سِوَى حَالَةٍ مِنَ المَتْعَةِ، لَقَدْ فَهَمَهُ كَرِيمٌ جَيِّدًا، كُلُّ مَا يَهْمُهُ أَلَا يَجِدُ نَفْسَهُ فى حَضْرَةِ العَجُوزِ المَجْنُونَةِ؛ إِنِّهَا تُخِيفُهُ، وَعِنْدَمَا يَأْتِى إِلَى عَرْفَى، فَإِنَّهُ فى كُلِّ مَرَّةٍ يَسْتَخْدِمُ كَافَّةَ الحِيلِ كى لَا يَقَابِلَهَا فى طَرِيقِهِ، كَانَ لَدَيْهِ الإِحْسَاسُ أَنَّهَا هُنَاكَ تَرَاقِبُهُمَا، رَاحَ يَسْعَلُ كَأَنَّهُ يَسْتَشْعُرُ اقْتِرَابَ الخَطَرِ، وَرِغْمًا عَنْهُ، أَدَارَ رَأْسَهُ نَحْوَ البَابِ، وَسُرْعَانِ مَا رَأَاهَا، إِنَّهَا صُورَةُ العَجُوزِ المَجْنُونَةِ أَمَامَ عَيْنَيْهِ .. كَانَتْ هُنَاكَ وَاقِفَةً أَشْبَهَ بِخَيَالِ مَاتَتْ عَلَى البَابِ، امْرَأَةٌ عَجُوزٌ تَبْدُو كَأَنَّهَا هِيكَلٌ عَظْمَى، لَكِنِّهَا تُخْفِى مَلَامِحَ غَامِضَةٍ مِنَ الفَتَّةِ، كَأَنَّهَا لَمْ تَأْكُلْ شَيْئًا مِذَّ أَمْدٍ طَوِيلٍ، كَانَتْ تَقْضِمُ كَسْرَاتِ خُبْزٍ، وَتَرْفُضُ كَافَّةَ الأَغْذِيَةِ الأَسَاسِيَّةِ، بَدَتْ زَائِغَةُ العَيْنَيْنِ، شَعَاءُ الشَّعْرِ، تَأَمَّلْتُ الفَصْلَ الخَاوِىَ مِنَ التَّلَامِيذِ، وَالمَقَاعِدِ الخَالِيَةِ، تَجَاهَلْتُ تَمَامًا ابْنَهَا والغَرِيبَ الَّذِى مَعَهُ، وَالحِظَةَ ظَلَّ كَرِيمٌ مَذْهُولًا، مَعْتَقِدًا أَنَّهُ يَرَقُبُ حَيَّةً، ثُمَّ قَامَ بِطَرِيقَةِ آليَّةِ، وَحَيَا ذَلِكَ الهِيكَلَ المَتَجَرِّدَ مِنَ اللَّحْمِ الوَاقِفَ عَلَى عَتَبَةِ البَابِ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ.

اِحْتَفَظَ عَرْفَى بِهَدُونِهِ، وَأَشَارَ إِلَى كَرِيمَ، وَقَدْ ثَبَتَ عَيْنِيهِ الضَّعِيفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَكَادَانِ أَنْ تَبْكِيَا عَلَى ذَلِكَ الكَائِنِ الغَرِيبِ الَّذِى ظَهَرَ.

تَقَدَّمَتِ العَجُوزُ نَحْوَهُمَا وَاثْقَةً فى نَفْسِهَا، وَقَدْ تَمَلَّكَهَا فِكْرَةُ قَدِيمَةٍ لِسُلْطَةِ الأُمَمَةِ، فَكَّرَ كَرِيمٌ أَنْ يَهْرَبَ، لَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ تَأَخَّرَ، لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ رِغْبَةٌ فى المَزَاحِ، وَهُوَ وَاثِقٌ فى هَذَا، هَتَفَتْ العَجُوزُ:

- أين ذهب الأطفال؟

ثم أضافت وهي تنظر إلى كريم بارتياح: لم يبق منهم سوى هذا،
ويخطوة متأهبة اتجهت نحو المنصة وجلست فوق القمطر، وأمسكت بيدها
البارزة العظام المسطرة، ثم أشارت بها نحو كريم:
- هيا، يا صغيرى، سمع لي درسك.

كان هذا هو الجحيم بالنسبة لكريم، ألقى نظرة توصل إلى عرفى، نظرة
رجل يغرق، ويحب الحياة كثيرا حين يموت، ولكن ضد كل التوقعات، لم يعر عرفى
أى انتباه لاضطرابه، فارتدى قناعا جامدا وبدأ يتابع المشهد ببرود وكأنه شخص
غريب، أربك موقف المدرس «كريم» إلى أقصى حد، فهل ينتقم منه عرفى وهو يتركه
هكذا فى خضم هذا الجنون؟ أم كان ينتظر منه أن ينفجر ضاحكا مثلما اعتاد أن
يفعل مع كل شيء؟ بالتأكيد، إنه يتحداه، هذا هو الأمر، ولا شيء عداه،
أخيرا، فى نهاية تلك الأبدية، قال عرفى بصوت بالغ المودة خال من
الدهشة:

- أخلدى إلى النوم يا أمى.

لم تبد العجوز كأنها سمعته، تمسكت بموقفها.

- هيا يا صغير، أنت تعطلنا؟

فهم كريم فجأة أنه كى يخرج من هذا الفخ، فعليه أن يلعب لعبة، وإلا يخيب
أمل العجوز، تذكر نصا وطنيا حماسيا تعلمه فى طفولته، راح يقلوه بصوت أجش
وهو يجلو حنجرتهم مرات عديدة.

راقبته العجوز بعينين زائفتين، كأنها تتمتع بهذا النص، ورغم منظرها
كساحرة، فإنها احتفظت بسلوك مدرسة فصل واعية لمهمتها، قالت عندما انتهى
كريم:

- رائع، أحبيك، لقد تقدمت عن آخر مرة، سأقول لأبيك إنك تستحق النقود
التي يصرفها عليك.

انحنى كريم عدة مرات، وكأن ثناء العجوز المجنونة ثقيل جدا على خجله،
أحس بخيلاء جامد يسيطر على الموقف، نظر الى عرقى بابتسامة منتصرة، وكأنه
يسجل بذلك تحديه وكشف عنه بشكل مبهج.

إنها الحقيقة التى يعانى منها عرقى. فجأة لم ير شيئا ، فاعتقد أن العمى
أصابه، تلزمه لحظة كي يفهم سبب هذا العمى المفاجيء. فالتأثر قد ملأ عينيه
بالدموع التى تخفى ألما كبيرا، امتلا زجاج نظارته بالبخار، رفعها ومسحها
بمنديله بطريقة محمومة، وقلبه يخفق بشدة، رأى وهو يعيدها إلى مكانها أن بطلى
رواية هذا الكابوس المهيّب موجودان دائما فى مكانهما، ساكنان صامتان، وكأنهما
ينتظران منه - ومنه وحده - أن ينهى المشهد، أسرع نحو القمطر، وأحاط كتفى
أمه بذراعيه، ودفعها فجأة، واصطحبها نحو الباب، تركته المجنونة العجوز يفعل
ويدت كأنها نست كل شيء، وهى تمر على مقربة من كريم ولم تنظر إليه، رمش
كريم لأخر مرة ، ولم يتحرك إلا بعد أن خرجا من الفصل.

لم يبق وحده طويلا، فقد عاد عرقى بسرعة، وقد بدا متأثرا، قال بصوت
جامد:

- أرجو أن تعذرنى، فأنا عصبي فعلا.

الآن ابتعدَ الخطر، واستعاد كريم بهجته، رد بصوت لهيج :

- لا عليك، كنت اتسلى، وكنت أستعيد الزمن.

رد عرقى: إنها غلطتى، كان يجب أن أحبسها بالمفتاح فى غرفتها، لكن لم
تواتنى الشجاعة.

قال كريم: لاتفعل شيئا كهذا، اسمع، هل تعرف أن شيئا رائعا قد حدث
لى. لم أكن أجيد حفظ هذا الدرس وأنا صغير، وهذا هو ما طرأ على ذاكرتى، أجد
هذا رائعا. ما رأيك؟

لم يود عرقى أن يرد، قال بكل بساطة:

- الا تود أن ترحل؟

(٧)

أحسا بوطأة الحر الشديد عندما عبرا الدور الأرضى إلى الشارع الملتهب، رفع كريم سترته ووضعها على ذراعه، ثم فك أزرار ياقته، ورفع أكمامه، ثم اتخذ هيئة رجل رياضى، لم يتبعه عرفى فى الممر، فهناك الكثير من أولياء الأمور فى الناحية، مما لا يمنعه أن يفعل مثله، مشيا متباعدين، لأن أقل ملامسة يمكن أن تصبح غير محتملة فى هذا الجو الخانق، توجهوا نحو دروب حى الجمرک مخترقين عددا كبيرا من الحارات الخاوية، التى توجد بها محلات قليلة، مفتوحة، ويدخلها التجار، وقد وضع كل منهم منديله على وجهه كى يحمى فمه، وقد تمددوا فى فترة القيلولة فوق مقاعدهم، بدا هؤلاء النيام أشبه بجثث هامدة فى كل مرة يستدير كريم وهو يرتعد، وعلى مسافة أبعد، هناك أطفال نصف عراة يلعبون فى برك المياه، التى تنتثرها رشاشات البلدية، راحوا يتقافزون بفرحة وهم يلقون لكريم دعايات حول أمهاتهم، انتزع هذا الحادث التنهيدات من الشباب، ووجد أن هذا الجيل الجديد من الأطفال يفتقد المهارة الحقة فى السباب، وأرجع هذه الخيبة لحساب النظام الجديد، ولكن الحرارة منعتة أن يركز فى أفكاره المحزنة، أسرع بالهروب من هذا الفرن، فعجل الخطى وهو يجر عرفى فى طريقه.

وبعد عشرين دقيقة من هذه النزهة الهذيانية، هبت نسمة تعلن اقتراب البحر، وراحوا يرون، عبر فتحات المباني، السفن الراسية على الرصيف، نائمة وساكنة فوق مرساها، توقف كريم أمام مبنى قديم مدهون باللون الأصفر وأخرج مفتاحين من جيبه، وفتح القفل الذى يغلق مصراعى باب ضخم، ثم قال لعرفى:

- ادخل.

ها هو المخزن الذى وصفه خالد عمر بين أيديهم يضم كمية ضخمة من مختلف البضائع. وعددا لا يحصى من الحقائق والخزائن المقدسة على الحائط. من الأرض وحتى أعلى السقف. عليهما أن يتخلصا من البضائع كى يخرجها المطبعة ذات الذراع المعدنية التى تلمع فى الظلام. لم تكن الناحية التى تم تنظيفها بكافية الاتساع. وأحس عرفت أن كل هذه الخزائن سوف تسقط على رأسه. تقدم بحذر وقد ثبت عينيه على الكوة الوحيدة المحفوفة بسياج. يسقط عنها ضوء خافت. إنها دليله الوحيد فى هذه العتمة الشديدة القادمة بعد الانفجار الأعمى من ضوء الشارع ، وعندما وصل إلى أسفل الكوة رأى أنهم وضعوا، لخدمتهما، مائدة ومقعدين، وفوق المائدة لاحظ خزانة مليئة بالعديد من المطبوعات. جلس فوق أحد المقاعد. وهو يمسح وجهه بمنديله، وأعجب بالشكل المعدنى، الذى يبدو أشبه بحيوان اسطورى وسط هذا الركام من البضائع.

دار كريم حول المطبعة وقد بدا أشبه بطفل يتسلى. وهو يمسك لعبة معقدة، استدار نحو عرفت، قال بكبرياء شخص أصابه الثراء فجأة:
- إنها رائعة. أليس كذلك؟ إنها تقريبا جديدة ، لقد بدا خالد عمر غنيا، فهو لم ييخل بالنقود.

قال عرفت: اعرف . عليك أن تخبرنى عن الطريقة التى أساعدك بها.
- ستساعدنى حالا على صياغة الملامح العامة. سوف أشرح لك كيف نتصرف، ليست الأمور صعبة، لكن أولا ، يجب أن أضىء النور. فلا أرى شيئا هنا.

وتوجه نحو مفتاح الكهرباء أضواء مصباحين بلا غطاء معلقين فى السقف بجبل، فائقيا ضوءا متدفقا راح ينثر درجة ما من حرارة الخارج. قال كريم وهو يقترب من المائدة. ثم وهو يجلس على المقعد الآخر:
- هيا.

رد عرفت: تحت أمرك.

وصل هيكل فى التاسعة مساء بصحبة خالد عمر، كان هناك أكثر من خمسمائة إعلان تصور وجه المحافظ بالزى العسكرى، مكدسة فوق أرض المخزن، كان التاجر يرتدى بدلة خضراء ذات أزرار ورابطة عنق حمراء تعكس تأثيراً مهييماً، فاحت رائحة البنفسج أكثر من ذى قبل، تقدم نحو كريم، وأمسك الشاب بين ذراعيه، وقبله على وجنتيه وهنأه على مهارته، امتلأت دهشته بصدى عميق للصمت الذى سيطر على حى الجمرك فى هذه الساعة من الليل.

— هل فعلت كل هذا ؟ بشرفى، أنت عبقرى.

توقف خالد عمر عندما رأى « هيكل » يبدأ فى قراءة نسخة من الإعلان بصوت عال ، وهو ينطق كل كلمة بحذر ، وكأنه يتلو صلاة الجنازة ، لم يستطع خالد عمر أن يكبت مشاعره وهو يسمع المديح الموجه للمحافظ ، هن رأسه بطريقة حمقاء ، ووضع يديه على صدره وكأنه يعانى من اعتلال مزاجه ، فى الحقيقة لقد بلغت درجة المكر القاتلة من هذه المهزلة الماكرة مداها ، وراح يهنئ نفسه بأنه واحد من المؤسسين ، قال هيكل عندما انتهى من القراءة .

— هذا البورتوييه بليغ بما فيه الكفاية، وأنا أنحنى أمام كاتب التعليق، سوف ينتصر صديقنا المحافظ.

ولأول مرة منذ أن دخل المخزن، نظر إلى عرفى.

تلقى عرفى التهنئة بشيء ما من الامتنان، وكأنه قادر على أن يساهم دائماً فى متعة هيكل الذى تصوره مذنباً، وفى نفس الوقت أن يخون القضية التى يعمل فى خدمتها، ابتسم كى يبين حساسيته لظهور هيكل، ولكن هذا بدأ يخرق المرارة المائلة خلف هذه الابتسامة. اكتسى وجهه بتعبير ملء بالتجهم، بدأ يفكر للحظة. ثم اقترب من ناظر المدرسة.

— أنت تعرف كم أحبك، يا أخى عرفى، ولكننى اعترف لك أن فىك شيئاً ما يقلقنى. هل أنت مريض؟ كم ساكون أسفا.

أحس بكل وضوح، أن عرفى متأثر ومرتبك، لكنه سرعان ما تماسك. وفهم أن هيكل يبدى تلميحا وهو يستعلم عن صحته، وأنه بشكل غير مباشر، يسأله عن

أخبار أمه، هذه الأم التي أصبحت سببا لعذابه، لا، لم يستطع هيكى أن يتعرف حقيقة نواياه، فهو يراها دائما واضحة، فى كل مرة يأتى إلى بيته. لا يفوته أن يزوره فى حجرة العجوز، قيل إنه لا يأتى إلا من أجلها، إنه يكتسى دائما بهذا الشكل المهيب الذى يتخذه خلال هذه اللحظة، لكنه يتصرف نحو المجنونة بأدب جم، ويتكلم كسيد مهذب، إنه شىء غريب فالمجنونة تتصرف بغرور وتبدو متأنقة وتتناديه بالأمير، إنه أمر غريب لا يستطيع عرفى أن يدرك أليته ويتذكره بخوف غريب، انتهى بأن تسأل إذا كانت عاطفة هيكى تسير فى مجراها الطبيعى، وهل هو نفسه مجنونا؟، أجاب.

— أنا على مايرام.

تأمله هيكى ومع ذلك تبدو بالغ التعب.

— لقد عملت كثيرا، أنت تعرف أننى أدير المدرسة وحدى.

— أفهم. ولكن لماذا هذه المرارة ؟ ياعزيزى عرفى أنت تعرف شعورى

نحوك، ولا أحب أن تكون بيننا أقل شائبة من الغموض.

— أين ترى المرارة؟

— سلوكك ليس هو نفسه، فأنت تعطينى الإحساس أنك لست على مايرام.

هل تجد نفسك متوافقا مع مشاريعنا؟

قال عرفى وقد بدأ عليه كآته تلميذ يشوبه الفتور: أنا أشاركك أفكارك

تماما ، لو كانت المرارة تبدو على قانها لا تتعلق بمشاريعنا، بل بأمر شخصى.

— إذن اسمعنى، هذه الإعلانات التى ستعلق فوق جدران المدينة سوف تثير

الدهشة. وسوف يتسأل رجال النظام عما إذا كانت هذه الإعلانات ليست من عمل

المحافظ، سيكون هناك خلط مرعب. سوف نملا أركان المدينة بهذه الإعلانات، ثم

نطبع المزيد، وبدءا من الآن، نحن مكلفون لعبادة المحافظ، وسيبدو هذا فى حديثنا

الى الناس. هل يمكن أن أعتمد عليك؟

لم يكن أمام عرفى وقت للرد. لأنه سمع فجأة ضحكة حادة انطلقت من

خالد عمر، الجالس فوق مقعده، لقد سمع هذا كريم وهو يعيد عليه قراءة نص

الإعلان. لم يتمالك التاجر نفسه وهو يسمع هذا التقریظ، وراح يكرره فى كل لحظة

لصديقه الذى بدأ سعيدا بإرضائه، نظر عرفى إلى كريم وتذكر مشهد المدرسة بين الشاب وأمه، وأحس بالخزى، فهل سيحكى كريم عن هذا لهيكل؟ بلا أدنى شك سوف يتصرف كمنتصر، أحس عرفى بالبرودة فى قلبه، إنه لا يـكـن أى مرارة ضد السيد هيكل، وإعجابه به يمكن أن يجعله يضحى بحياته لمثل هذا الرجل، هيكل كما هو دائماً، بسلوكه وأساليبه الراقية، لم تزعزع أى مؤسسة شخصية بروده الشديد، رفقـه عرفى فى تناقضه الرائع المؤسى، أحس أنه وحده على وشك أن يتعلق بطرف هذا العالم الهزلى المبهج، حيث تساعـل هيكل، وماذا لو أن هذا الخيط تمزق؟ سأل هيكل موجهـا كلامه إلى كريم:

— هل استعددت لهذه الليلة؟

رد كريم: نعم، كل الاستعداد، لقد واعدت بعض الزملاء الذين عليهم الانضمام إلينا، سنشكل مجموعات عديدة وسنتقاسم أحياء المدينة، — حسن إنت رائع.

— أفكر فى الإعلانات التى ألصقتها منذ بضع سنوات والتى كانت تتكلم عن الحكومة بشكل سىء،

— هذه المرة سنتكلم عن حسناتها، تغير الأمر قليلا.

اقترح خالد عمر: سوف أصبحك .. أرغب فى لصق واحد على الأقل.

قال هيكل: من الأفضل لا..

لم يقل لماذا، ولكنه فكر فى أن الضجة والضحك المنطلقين من خالد عمر تجذب الانتباه حوله، قال التاجر متكررا

— أمتل لأوامرك.

ابتسم هيكل له، وقال: معذرة، لأننى مضطر للانصراف.

توجه نحو كومة من الإعلانات المكسرة فوق الأرض، وأمسك واحدة، وراح

يتأملها طويلا، ثم ثأها، ودمسها فى جيب سترته، وقال وقد اكتسى بالغموض:

— ربما أحتاج إليها هذا المساء، السلام عليكم.

وخرج من المخزن وسار فى الشوارع الخاوية، وهو يتنسس رائحة البحر الحية.

(٨)

اختلطت رائحة البحر بالعطر الذى تضعه سعاد على جسدها النحيل ذى التكوين البالغ الأنوثة. كانت تتأرجح فوق الرمل، وهى تتسلى بتأمل النجوم من زاوية لا يمكن لأحد أن يراها، انها موجودة على البلاج، عند طرف منتزه الكازينو الخاوى، فى منطقة معتمة بعيدة عن الأضواء. معدة للرقص فى وسط الهواء. وصلت موسيقى الرقص اليها وقد تخلصت من إيقاعها الخافت آخذة شكلا شبحيا. وواقعا فى الركن المهجور من البلاج. تاهبت للحظة. الوجه تكسوه ملامح طفولية. جمعت حفنة من الرمل وجعلتها تنساب ببطء فوق أسفل بطنها. وهى تحس بسعادة غريزية وتشعر بهذا الثقل الذى يبرز فوقها ثانية بثانية. وقد تآقت لبعض المداعبات التى سبق أن جربتها مرات عديدة. تأوهت، كى تصل الى ذروة الشهوة ، وهى تتعلق بالمتعة التى انغمست فيها، فجأة توقفت. ألقت كمية من الرمال بين ساقىها ثم راحت تلتطخ رداثها واستدارت نحو أضواء الرقص.

كان هذا هو العالم الغريب والهزلى الذى دخلت فيه بهذه النزهة الخاوية، عالم بعيد تماما ، أحسست أنه موجود على مسافة آلاف الكيلومترات، نظرت الى نجم آخر، وإلى صالة الرقص وسط ديكور من النباتات الخضراء، ومصببات مياه وأشجار نخيل قزمية، الراقصون يتحركون كأنهم عرائس يحركهم رجل مجنون. راقبت الجالس الى جوار المحافظ فى مقصورة منفصلة عن بقية الحاضرين، كان المحافظ يخطب أمام أبيها ورجلين آخرين لاتعرفهما، ليس عليهما سوى أن يهزا رأسيهما علامة على الموافقة. هناك مغنية مشهورة فى البلد. متقدمة فى العمر. يقال أنها عشيقه المحافظ منذ أشهر. انها امرأة مسنة ضخمة. تبدو

كمومياء فرعونية، تسمى أم خلدون، فلا شك أن وجودها مع بعض نبلاء المدينة يمنعهم من السقوط فى دائرة النسيان، أن يكون المرء عاشقا لمغنية شهيرة يعنى استعراضا لقدراته، فهم يزعمون انها تساوى الكثير لهؤلاء الأثرياء الجدد.

فى كل مرة تراها سعاد تتسامل كيف يحكن لرجل شديد القظاظه، شديد التعلق بالجمال أن يمارس الحب مع هذا المخلوق المجعد ذى اللحم الرخو والشديد الغرور؟ لقد كانت المطربة عشيقة لأبيها بعض الوقت، وتحتفظ الفتاة لهذه الفترة ببعض الذكريات المؤلمة، فإن حقدما على أبيها قد صاحبه احتقار غير محتمل، فلم تسمح له أن يقترب منها، ولا أن يلمسها، بدا لها وكأنه مصاب بمرض معد، وأنه يفوح برائحة العجوز، الأقرب لرائحة العفانة. وبعد أن قطع أبوها صلته بالمغنية، لم تعد تحتل رؤيته إلا نافرة.

كان أبوها من النوع الذى يمثل البرجوازية الشرهة النهمه التى تسيطر على المدينة، وكأنها عصابة متعفنة من أبناء أوى. لم يصادق إلا أناس على طرازه، ولكن كل الناس حقراء، حتى المحافظ، فإنه يمثل تميزا بوقاحته وخيلائه، وطوال سنوات بدت سعاد ذليلة، راح أبوها يمارس شتائمه عليها كأنه جلد. لا شيء يقاوم أحكامه القاطعة، وانفجارات غضبه العالى. بصفة عامة فهذه الانفجارات بدت واضحة خلال حفلات الاستقبال التى يقيمها فى فيلته الفخمة. والواسعة كأنها قصر. والتى تعج بخدم عديدين، بدا فى استقبال ضيوفه كشخص يتحمل الإهانات ويسمح لنفسه أن ينتقم فى الوقت المناسب ثم يعود إلى ضيوفه الذين يصيبهم الخجل من سلوكهم، يدير الاحاديث المتعلقة بالأعمال السياسية، لا يجرؤ أحد أن يعارضه، حيث أن حدة ربوده سريعة، وطريقته فى إدارة الحديث وهو يوجه السباب لمحدثيه تجعل من منزله أغلى الأمكنة فى مجتمع المدينة. فكل واحد يأتى لرؤية كيف يهان الآخرون، ومع ذلك كان يعامل ابنته بقدر من الاحترام. يكاد يقارب الخوف، كانت تخيفه قليلا بمزاجها الثورى، فهي تبدو متمردة. كل ما كان يطلبه منها هو ألا تثير له أى فضيحة. كان يخاف أن يراها وقد أصبحت يوما «حاملًا»، يبدو كأنه يخشى هذا الاحتمال مثل أكثر النكبات المشنومة. كانت سعاد تعرف أنه قلق من هذا الموضوع. تقرأ الإضطراب فى عينيه كل يوم عندما تنظر

الى بطنها . كأنه ينتظر أن تنفجر الفضيحة . لكنه ذات مرة أدرك هذا الامر فلم يود أن يعرف شيئاً وكان عليه ألا يجهل كل شيء عنها .

انعكس خيال هيكل على الأضواء الراقصة، ونظرت اليه يتقدم نحو المنتزه طويلاً ورقيقاً ، رافع مثل شبح غامض قادم من العدم، قامت بغتة، لكنها لم تجر نحوه، انتظرت بلا جدوى أن ترتضى بين ذراعيه، راحت تستند عليه وهي تقفز وتطلق تنهيدة عميقة كطفل حصل على لعبة غريبة الشكل ولا يمكن أن يؤمن بحظه، راح هيكل يتحمل مداعباتها الرقيقة، هذه العاشقة الصغيرة الموهوسة. كان حساساً لهذا الافتتان ولهذا التدفق من الكلمات غير المفهومة، أشبه بتمتمات غريق عاد الى الحياة. لم تكف الفتاة عن تقبيله، والاحتكاك به وهي تنقل بكل حدة على جسده، راغبة أن تجره «معه» فوق الرمل، ولكن «هيكل» تحرر من عناقها وأبعدها برقة، وقال:

— هيا يا صغيرتي، ليس هذا وقته.

تأوهت: أنت قاسٍ معي.

اكتسى وجهها بتعبير مرتبك، وكأنها على وشك البكاء. ملامح فتاة صغيرة محبطة، ضحية لظلم الكبار، بطريقة تلعب فيها دور البائسة الباحثة عن الحنان، لم تكن تعرف مطلقاً في أى لحظة أحبته. إنه دائماً ساكن، حتى في مشاعره الأكثر جموحاً، يتعامل بنفس هذه الابتسامة الماكرة فوق شفتيه، وهذه النظرة المتكبرة، إنها ليست بعيدة عنه، ولكن على العكس، فإنها مليئة بالجرأة، والتحدى، رددت وهي تسلم صدرها لأصابعه الجامدة —

— أجل، أنت قاسٍ معي.

وراح هيكل يبتسم.

قال وهو يمسكها بذراعه ويمشي بها بطول الشاطئ:

— هيا، لنوقف هذه اللهاة.

في الحقيقة، فإنه لم يرغب في ممارسة الحب معها فوق الرمل حتى لا يتلف ملابسه. فهو في حاجة لأن يظهر لتوه في صالة القمار كي يقوم بمهمته. لم يود أن يراه أحد بزي غير مهندم، لكن من ناحية أخرى فهو الآن موهوس بشيء آخر غير

الرغبة الشهوانية، إنها الخطة الجهنمية المدبرة ضد المحافظ، وريود الفعل التي سيحدثها تعليق الاعلانات فوق جدران المدينة.

توقفا قريبا من حاجز يؤدي الى أوتاد خشبية تفصل الشاطئ الخاص عن الكازينو. جلست سعاد فوق الحبل المشدود وراحت تتأرجح، ويقي هيكل واقفا ينظر اليها، ثم اتخذ مكانا الى جوار الفتاة التي راحت تطل قامت، في هذا الركن كانت الظلمات أشد عتمة، وكان الضوء الوحيد قادما من ناحية البحر الذي تنعكس عليه أشعة النجوم. أما الموسيقى الراقصة فقد خلفت صموتا شديدا وغرقت مباني الكازينو المضيئة في نوع من اليبعاد، أحس هيكل أنه الحى الوحيد في عالم من العدم. تملكته فجأة مشاعر غريبة من القوة، قضم سعاد اليه، وكأنه يجرب قوته في الدفاع عن نفسه ضد الموت بشكل ميئوس منه.

فجأة دفعها، وسألها:

— هل أبوك هناك؟

— نعم إنه في صحبة المحافظ. كيف تسير الأمور هذا المساء؟

— حسن جدا. فالاعلانات ستكون فوق جدران المدينة صباح الغد وستكون صورة وجه المحافظ ذات ملامح خاصة، ستكون أشد فتكا من النص المكتوب معها، حاولي أن تقارني.

قالت، وقد علقها تكشيرة حزينة:

— أنت لاتراني إلا من أجل هذا. فلست لك سوى جئسوسة للمعلومات. وأنت لست سوى مجرم فاسق .

حقا. فسعاد تخدمه من أجل التجسس على المحافظ طوال لقاءات عديدة عقدها هذا مع ابنيها. فالمحافظ يعتبرها فتاة صغيرة ولا يهتم قط في البوح، أثناء وجودها، بالأسرار البالغة الأهمية. لدرجة أنه قد جاء وقت أثارت أحاديث الرجلين تتأوب الفتاة ، فتعبت من سماعهما وهما يتناقشان حول كل الموضوعات الجادة التي تتعلق بأمور المدينة. ولكن منذ أن تعرفت على هيكل راحت تنتابها غريزة

فضول لكل مايتعلق بالمحافظ، فتركت نفسها تنساب فى كل مرة تروح تبلى الشاب ببعض التفصيلات حول مشاريع المحافظ وخططه.

قامت، ووقفت أمامه. وسألت فى توسل:

— هل تحبنى؟

بدا السؤال التافه فى فم الصغيرة ذا معنى حاد، فقد عبس هيك، ورفض أن يتركها تنغمس فى هذا المستنقع الشجى بالحب، فكل مايشعر به نحوها ليس له أى علاقة بهذا الشعور الجارف الذى يبدو أنها تكنه له، فهى تحس نحوه بعاطفة تبدو كأنها من مفاجآت الروتين، ولكن كيف تفسر له كافة التناقضات؟ انها واعية لذلك تماما، وسيكون من الحفاوة بالنسبة له أن يخدمها، لأنها امرأة ولايمكن أن يجعلها تتجاهل طبيعتها، أجاب بابتسامة مريرة ليس بسبب كذباته ولكن بسبب الندم الذى عليه أن يجريه لو افترقها ذات يوم:

— طبعاً ، أحبك،

صاحت هاتفة:

— ترى أى رجل أحببته ، رجل مثلك يمكن فقط أن يجعلنى أشعر بوجودى هذا الامر يبولى كأنه معجزة.

وقفزت فوق الرمل، مشدوهة وسعيدة، جذبها هيكل وجعلها تجلس قريبة منه فوق الحبل، ثم وضع يده على عنق الفتاة، وقال:

— اسمعى، عندى مهمة لك، ففى المرة القادمة التى ستأتين فيها لمقابلتى احضرى آلة كاتبة، سوف أمليك رسالة.

— ماذا ستعد لى، ملهاة جديدة؟

— حسن ، عندى النية أن أرسل لكل الصحف خطابا نوريا، أسألهم فيها أن يفتحوا باب الاشتراك لإقامة تمثال للمحافظ.

ضربت سعاد بيديها عندما نطق اقتراحه ، أرادت أن تقوم، ولكن «هيكل» أمسكها وأجبرها أن تظل هادئة. وردد:

- انتظري، ليس هذا كل شيء، هل تعرفين من سيقع هذا الخطاب؟ سوف يحمل توقيع أبيك ليخلص الأصدقاء للمحافظ..

- أنتم كتيبيهن، آه، كم أحبك،

بصرك على رقبتك وغطت وجهه بقبلات سريعة.

- يلزمنى توقيع أبيك كى يمكن أن أقلده، هل يمكن أن تدبرى لى هذا؟

- هذا أمر بالغ البساطة، سأطلب منه أن يحرر لى شيكا، فهذه ليست أول مرة، فهو يفعل ذلك دائما عندما يعطينى النقود.

هتف هيك: رائع، كم أنا فخور بك، سوف تطلبين منه شيكا على بياض وسوف استخدمه كى أرسله فى أحد خطاباتي، سأختار الصحيفة الأكثر انتشارا فى المدينة، وسيجعل الشيك الأمر مضمونا أكثر، فالصحف الأخرى لن تثير أية فضائح، سوف ينشرون الخطاب دون مجاملة،

اهتزت سعاد فجأة فى ضحك حاد يملؤه المكر، ضحكة امرأة تعد للانتقامها.

- آه .. الغبى لو كان يعرف،

سأل هيك: من؟

- أبى، هل تعتقد أنه سوف ينتحر؟ آه، كم أتمنى ذلك، كم أتمنى ذلك !!

أجاب هيك: موقفك الشخصى لايهمنى، ويجب أن تفهمى ذلك.

وانخرط فى ضحك الفتاة حقد حقيقى، لأنه أدخل كل الفساد الذى يفصله عنها، فالنساء يصبن بالحب لدرجة الهذيان، وعند الكراهية يمتزج العنف بالغباء، كأن الحقد شعور مفتقد تماما، فازدراؤه العميق للبشرية يمنعه أن يعطى أى أهمية لأحد من المهرجين الذين يقومون ببطولة المسرحية، فى هذا العالم المزين بواقعهم، نظر الى وجه الفتاة الجامد الذى يبدو كأنه ينتظر منه كلمة أو مداعبة كى يبتهج، لكنه ظل صامتا، استوائت عليه ذكرى وجه آخر، وجه ملئ بالصفاء، يمكن لكل حقد أن يندثر تماما أمامه، كل الرقة المتجمعة والمتدفقة فى هذا الوجه المجنون العجوز، أم عرفت، وجنونها الذى يجعله غريبا، انها تحلق فى أعلى هذا العالم

الخارجى. بتقاء خفى، لا تلتطخه كراهية. هو الذى ليس بيده شىء ، إنه يغير من عرفى لأن لديه هذه الأم المجنونة. هذا الكيان الهارب فى حضيض الأحياء الشعبية، ناظر المدرسة الذى يملك الشىء الوحيد الذى يمكن إثارته ومس شفافة. إنه شىء ثمين للغاية. يضطره أن يسمح لعرفى بمشاركته التغيير، لديه اليقين أن صديقه لن يقدر على فهم معنى هذا الإجلال الفريد. لقد كان يعرف أن عرفى يؤنبه فى داخله. لأنه يجلس نفسه دائماً مع المجنونة العجوز فى غرفتها، انه يشك بأن لديه أفكارا موسوسة تجاه أمه. كيف يمكنه أن يشك أن هذه هى اللحظات الوحيدة التى يمكن لهيكل أن يجرب شعوراً مؤكداً. أصبح من المعجز الشعور بالامتنان. والرقه، إنه قادر على التضحية بلا حدود أمام هذه العجوز المجنونة. هذا الحطام الإنسانى. أحس بالصمم فى داخله. دموع الرقة والحب، لكنه يفضل أن يثير شكوك عرفى المرعبة. بدلا من أن يعبر له عن الرقة المتناهية لهذه اللحظات التى يتأمل فيها وجه أمه الحنون. هذا الموقف المبهم يثير شجنه لدرجة تجعله يهرب من زيارة العجوز المجنونة. يكفيه الآن أن يتذكر ملامحها، ونظراتها الطفولية الشهيرة، كى يصل الى أنين النفس الذى يسبب سعادته.

أحست سعاد بغريزتها أن فى صمت هيكل نذيراً سيئاً. اهتزت على الحبل، وتعلمت، وتنهدت بقلق وهى تراه عائدا اليها. تأتى الموسيقى من بعيد، خفيفة، وصافية فى الليل. انتهت بأن قالت:

— هيا نذهب لرقص، فأبى مشغول جداً مع المحافظ. ولن يلاحظ شيئاً. فأنا لم أرقص معك منذ فترة طويلة.

قال هيكل - لا، مستحيل، الحقى بأبيك. فسوف أتوجه الى صالة اللعب.

— هل سأقابلك فيما بعد؟

— سأجىء لحظة الرقص. لكننى لن أبقى طويلاً. فلدى ما أعمله هذا

.. المساء.

قالت وهى تمط شففتيها وتطلق تكشيرة مأساوية: أعرف ماسوف تفعل.

قال هيكل ضاحكاً: لاتكونى غيورة.

– لست غيرة الآن، ولكن أحذرك أننى سأصبح هكذا عندما أكبر.
قال هيكل مداعبا. لكنك الآن كبيرة فأنت فى السابعة عشرة تقريبا.
– أيها القدر

كادت أن تجهش. ولكن هيكل تأهب للذهاب، وقفت سعاد فجأة وتعلقت به.
وهى تحاول أن تخريشه، وأن تقبله فى نفس الوقت، وبكثير من البراعة، وبكثير من
الوعود الماكرة، تمكن من التخلص من الفتاة. ثم عبر المنتزه وعرج نحو اليسار فى
اتجاه المبنى المخصص لصالة الألعاب.

كان مبنى من الممر، مزين بالموزاييك، أشبه فى هندسته المعمارية الثرية
بمقبرة هندية، دخل هيكل الصالة بخطوات سريعة ومرحة، كمقامر يود ألا يتأخر
عن قدره، التزم بصمت مهيب، ملئ بالمعاناة. ألقى مسئول اللعب البلى فى طبق
الروليت. كان دوران البلى يبدو أشبه بابتسامة خبيثة، سادت الصالة تماما، فى
هذا الجو الحار، كانت الحرارة ملتبهة فلا أى نسمة تهب من الفتحات الواسعة
التي تطل على البحر. دقق هيكل فى مجموعات المقامرين المتلاصقين حول المائدة
الطويلة، ولكن أحدا لم يستدر فى مكانه، كانوا منهمكين تماما فى اللعب لدرجة أنه
لا يمكن لزلزال أن ينزعهم من التأمل فى الروليت، ظل دوران البلى مسموعا حتى
عندما بلغ أطراف الصالة، الى جوار البار الضخم، حيث يوجد ممر يؤدي الى
دورات المياه، كان المكان خاويا. مد هيكل أذنه نحو الممر كى يتأكد أن أحدا
لا يتبعه، لم يسمع أى ضجة، ولكن فقط حركة صماء تأتي من بعيد، بلا شك فالبلى
بدأت تستقر، تحرك اللاعبون من معاناتهم. حانت اللحظة التي بدت له ملائمة كى
يبدأ العمل. وبسرعة أخرج الإعلان من جيبه وبواسطة أنبوبة لصق راح يلصقها
على الحائط، بالضبط أعلى صف المبولات. بدا وجه المحافظ كأنه هو يرقب فتحات
سراويل زبائن الكازينو. انه أمر يثير السخرية حقا. تراجع هيكل وهو معجب
بعمله، ثم غمرته فرحة ماكرة، هنا سمع خطوات فى الممر، قد يتعقد الأمر. اذا رآه
شخص الآن، سوف يبدو كشخص مشبوه، أو يتصرف كأنه لا يعرف، لن يهرب من
نقاش يخاطر أن يتلافاه، أمسك مفتاح الكهرباء بيده، حركه، وأغرق دورة المياه فى
ظلام، ثم انسل من الناحية الخلفية وهو يدفع الباب، اقتربت الخطوات الثقيلة

الخرقاء، تدخل رجل المرحاض، وفي الضوء القادم من المر، رأى هيكـل رجـلا ضخما يكاد يترنح، يتجه يمينه نحو المـبولة، إنه رجل متقدم فى السن، شديد البدانة، بدا للوهلة الأولى وكأن هيكـل لايعرفه، أطلق تنهيدة وبدا ثـملا، تماسك هيكـل، واستعاد أنفاسه، فهو لايجرؤ أن يتحرك، انتظر أن ينشغل الرجل فى التبول لكى يأخذ فرصته فى الهروب، فالرجل الآن يدير له ظهره، وقد باعد بين ساقيه، انعكس ظله الثقيل على الخزف الأبيض، زفر وهو يحاول فتح أزرار سرواله، كان ثـملا بما فيه الكفاية لدرجة أنه لم يلحظ انطفاء النور، وراح هيكـل يهنئ نفسه عندما أخذ الرجل فجأة يطلق سبابا بذيئاً ضد إدارة الكازينو. رغم سكرته، مال بكل خفة نحو مفتاح النور، وبعد برهة عاد الضوء، ولكن قبل أن يستطيع هيكـل إصدار أى حركة، رأى الرجل وجه المحافظ على الحائط. انتابه زعر للحظة، ثم أطلق صرخة ضاحكة ساخرة، خنقت حنجـرته وانهار وهو يهز يديه فوق رأسه وكأنه سيطلب النجدة من كل الدنيا، انتفض هيكـل، وهو يفاجئ بما حدث، اقترب ببطء من الرجل الممدد فوق الأرض وقد انفتح السروال، بدت كل هذه الكتلة الضخمة المتمددة كأنها الجثة. لقد مات، جحظت عيناه وهما تتأملان وجه المحافظ فى إلحاح باد، وبدا لهيكـل أن للرجلين مظهراً ساخراً بطريقة غريبة. ترك المكان وقد فهم تماما سبب هذه الخصومة اللدودة والغامضة بين الرجل والمحافظ.

كان الصوت الذي سلا صالة القمار قد جعل «هيكـل» يصدق أن نبأ وفاة المجهول ذاع بين اللاعبين، ولكنه سرعان ما أدرك خطأه. فقد كسب واحدا من اللاعبين مبلغا كبيرا، وكان هذا حدثا سعيدا بالمصادفة أثار هياجا عاما. انتهز هيكـل هذا الهياج، لم ينتبه أحد إليه وهو يعبر الصالة ويخرج الى المنتزه .. وعندما وصل الى صالة الرقص، اتخذ مائدة خاوية قريبة من نخلة صغيرة وجلس ينتظر الأحداث.

بلا شك، فالرجل أصابته نوبة قلبية مفاجأة عندما شاهد صورة المحافظ. لم يكن هذا الموت مدرجا فى البرنامج، لكن «هيكـل» راح يعزى نفسه، فحسب رأيه فإن هذا الحادث نتاج لقدرية تعرف أحيانا كيف تبدو مثيرة للسخرى. وهكذا، فإن أول شخص رأى الاعلان سرعان ما سقط ميتا، «أمل لايتبعه الآخرون فى الدرب.

فسوف يسبب هذا مجزرة». هكذا فكر هيكل، فليس هذا هو مايرغبه، ظل منتبها لأقل بادرة، راح يتأمل بكل حدة تعاطف هذا الجمهور البرجوانى المفلور المختال بسماته غير المحتملة. حقا الكازينو هو المكان الأمثل لهم، قاله يأتى عليه القوم وأثرياء المدينة. هنا حيث يعتمل الغباء الغريب لهذا الحشد، مما يجعله يؤمن بخيالهم المريخى. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة. كل هؤلاء الناس أصابتهم بشاعة غير محتملة، نوع من القبح اللامتناهى، يسمح ببصيص من الضوء لأفكار غير معقولة. إنهم لايميلون الى التسلية. جامدون فى أنوارهم، يعيشون نفس الملهاة المريعة التى تدور فى مجهول. فالبشرية بشعة، وقد اقتنع هيكل بذلك منذ أمد طويل وهو عند هذا الحد يعتبرها شكلا من أشكال الاستفزان.

أدار عينيه نحو مقصورة المحافظ. وكأنه يدير رأسه نحو شيء مبهج. رأى سعاد فى مقصورة أبيها والمحافظ، أما الآخرون الذين كانوا معهم فقد اختفوا حتى عشيقته المحافظ. المطربة التى لعلها توجهت الى عملها فى ملهى ليلي، كانت الفتاة تجلس فوق مسند المقعد الذى يشغله المحافظ وتبدو كأنها تتوسل إليه أن يمنحها رضاه. إنها تستخدم كل سحر أنوثتها المبكرة، فانحنى نحوه، وراحت تدلك له ظهره بيد رقيقة كأنها اعتادت على ذلك كى تمنحه فرصة، بدا المحافظ مسلوب الإرادة بشكل مرعب، يدافع عن نفسه كشيطان ضد محاولات إغراء الصبية، لم يفهم هيكل أن سعاد تحاول أن تنال منه. أثاره هذا، ثم تابعت عملها للحظة بدافع التسلية.

كان المحافظ ينتمى الى هذه الطبقة من الشخصيات العامة الذين ليس لديهم أى شيء يفعلونه، فخيالهم محفوف بالعمل الذى تنجزه الطبيعة. إنه قصير القامة، مكرش، الساقان ملتويان. الأنف أفطس، العينان كبيرتان مستديرتان جاحظتان، تبدوان كأنهما تنويان الخروج من محجريهما، وعندما ينظر إلى محدثه، فإن هذا الأخير يحس أنه كبر الاف المرات، لان هذه الاشياء المتوحشة البارزة، الجاثمة فوقه تبدو كأنها ميكروبات معدية، فى الحقيقة فإن المحافظ يحاول

أن يبدو يقظا فى مدينة يرغب كل سكانها فى النوم. لا يمكن أن نقول أنه يرى كل ما يمر من حوله، وأنه يتصرف كنسر، كان عليه أن يكسو وجهه بالنظرة المعروفة عن «ملك الجو»، إنه أحد أصدقاء الوزير فى السلاح، الذى عينه فى وظيفة المحافظ. كانت تلك فرصة كى ينتقم لكل سنوات الخمول. فراح يحكم المدينة وكأنها خزانة مجندين. ففى كل يوم يتخيل ممنوعات جديدة تمس الشعب الفقير. يقال أنه جرب كافة المخاطر، الشيء الوحيد الذى لم يجرؤ أن يلმسه هو تحريم لعبة الطاولة فى المقاهى. يقال إنه يفكر فى ذلك حثيثا، ولكن حاشيته حاولت أن تثنيه عن عزمه، وأكدت له أن منع لعب الطاولة سيثير حالة من رنود الأفعال ويستوجب موافقة من الحكومة بالعاصمة.

الآن، وقفت سعاد قريبة من مقعد المحافظ وسحبته من كمه، أشارت له الى حلقة الرقص. سرعان ما أدرك هيكى سبب توسلاتها، فالفتاة توسلت للمحافظ أن يرقص معها. ولكن المحافظ رفض تماما، حاول أن يتخلص من ذراعها، لمع فى وجهه القزم رعب ساخر، أدرك هيكى أن سعاد تفعل كل ما بوسعها كى تقدم له عرضا رائعا، وفى لحظة نظرت تجاهه، وابتسامتها اللئيمة على شفيتها. كأنها تحاول أن تلتف نظره أنها تهب نفسها لفتنتها. كان على هيكى أن يسمح لها بمراقبة المحافظ. أعطت ابتسامته للفتاة بادرة تشجيع. ثم راح ينظر الى الجمهور.

خلال بضع دقائق، كان الجو قد تغير تماما، لوخط أن هناك حركة غير ملموسة من العصبية بين الأشخاص. كان الندلاء وموظفو الفندق يروحون ويجيئون بحركات مليئة بالتوتر قام العديد من الزبائن، وبسرعة اتجهوا نحو صالة اللعب. أحس هيكى من حوله ببوادر توتر خفية. وكأن هناك ريع غضب غامضة. راح الأشخاص الذين كانوا يتكلمون بصوت عالٍ يتهامسون بينما انخرس البعض الآخر تماما، استمر الاوركسترا فى عزفه الذى يصم الأذان، وفجأة تراجع إيقاع الموسيقيين الذين يفترض أنهم قد أدركوا الكارثة القادمة من البحر، أحس هيكى أن الأمر تم إكتشافه جثة المجهول الميت فى بورة المياه. انتابه وخز خفيف فى قلبه لما سوف يحدث.

— سلام عليك يا هيكل.

كان للشباب الذي يقف أمامه جمال الغزال البرى، وجهه الرقيق يقف فوق رقبة طويلة كشفت استدارة وملاحة ملامحه الدقيقة. كانت له عينان سوداوان واسعتان، ورموش مخرمجة تترك حولها تأثيرا رائعا، وجذابا للنساء المتقدمات فى السن وصاحبات الثروات. اسمه رياض. ومن طموحاته أن يحظى بصداقة هيكل. فهو معجب به بلا حدود، حاول أن يثير انتباهه عندما وجد نفسه مع مخاطبه فى الممر. لم يود هيكل صحبته قط. وراح يباعد المسافة بينهما ولكن المصلحة التى تربط بين سكان المدينة. تجعله مضطرا الى وساطة رياض. إنه يحمل فى قلبه كل أنواع الخنازير والنواذر السخيفة التى تنطلق حول الحكومة العليا. كان رياض يعرض بلا حياء علاقاته معتقدا أن هيكل ينهر بالتسهيلات التى تتم فى الأوساط الأكثر رقيا. لم تنتابه قط فكرة أن هيكل يتقيأ من هؤلاء الرماع ولا يهتم سوى بإرضاء مزاجه السادى. قال وهو يجلس حول مائدة هيكل:

— هل عرفت الخبر؟

— لا. ولكن أمل أن تخبرنى.

أخذ رياض وقتا. تضاربت رموشه. واستدارت رقبتة وكأنه يحب أن يفعل ذلك من أجل إغراء محدثه، ادرك أن عليه أن يسرع، ففى ظل هذه الظروف هناك مخاطرة. علم هيكل بوقائع الخبر المشنوم بدقة بدقيقة. وهكذا حصل على المعلومات بلا مقابل. كان من الصعب عليه أن يتكتم الأمر. مما مكنه من تحول خفيف فى اللهجة:

— حسنا، إذن فالمحافظ سيكون مسرورا.

سأل هيكل: لماذا؟ ألم ينل بعد ما يستحقه؟

علق رياض أخيرا. لقد مات عبوه اللدود أنت تعرفه بالتأكيد، انه عبد الحليم مكرم. رجل الصناعة الثرى. لقد وقع بكل ثقله فى بورة مياه صالة القمار. قال هيكل: لقد نال ما يستحق. يا له من غبى. كيف يمكن أن يكون عبوا

للمحافظ وهو الرجل الثرى.

- ألسنت فى الدنيا؟ فالمحافظ خطف منه عشيقته منذ بضعة أشهر. إنها المغنية العجوز أم خلدون. فالمحافظ مرتبط بها فى هذه الايام.
- ولكن الناس كلها يزعمون أن عبد الحليم فاقد الرجولة.
- لا يهم. كان لايدرى أن الناس تعرف ذلك، بل على العكس كان واثقا أن المحافظ قد سلب المغنية منه، إنها امرأة غير جميلة. ومع هذا كان ينتقده بشدة . هؤلاء العواجيز مزعجون فيما يتعلق برجولتهم.

وبينما هو يتحدث مع الشاب، لم يكف هيكل عن النظر الى مقصورة المحافظ. لقد اقتربت اللحظة التى لم يعد فيها موت عبد الحليم سرا لأحد ويهمه أن يعرف كيف سيتصرف المحافظ عندما يعرف الخبر. كانت سعاد قد تخلت عن مشروعيها الرائع مع المحافظ، جلست هادئة علي مقربة من أبيها. وقد اكتسبت بتكشيرة لاحظها الرجلان اللذان انهماكا فى نقاش فظ. بدا وجه المحافظ الحزين مكتسبا بتوعل عميق. بسبب كرامته المجروحة. راح محدثه يتتبعه. يجب أن يسقيه من روح السخرية. راح يبرم شاربه ويرفع يده وكأنه يتحكم فيمن حوله بهذا الفيضان من القضاة المهينة. رأى هيكل سعاد كأنها تنبج. وقد بدا عليها الملل جهارا. وفي مقصورتها المنفصلة عن الجمهور. بدوا وحدهما كأنهما لم يصابا بأى قلق. قال هيكل:

- الرجولة. لم يشك عبد الحليم المسكين قط أنه فقد رجولته. بل أنه افسد طعمه الماسخ مع امرأة عجوز. فعندما يكون المرء عاشقا لامرأة عجوز مشهورة .. ذلك أفضل من أن ينام مع فتاة مغمورة لايتكلم عنها أحد. ولكن ماذا يرضى رغبته كرجل؟ اليس ذلك بسبب ثرائه؟ لقد خشى أن يتهموه بالبخل. فى الحقيقة لم يكن يبحث سوى عن إثارة دهشة من حوله.

قال رياض: لقد فسرت حالته جيدا. ولكن ليس هذا كل شيء. هل تدرى أنهم اكتشفوا إعلانا معلقا على المبنولة عليه وجه المحافظ مصحوبا بكلام حماسى عن اتجازاته. ألا تجد أن هذه مصادفة غريبة؟

- ماذا تعنى؟ هل وجه المحافظ هو المسئول عن الأزمة القلبية؟

- باطبع. فعبد الحليم كان مخمورا، وكان رأس المحافظ يتأمله وهو يتبول مما ذكره بشيء أثار فيه صدمة مرعبة.

علق «هيكلم: إنه لأمر مضحك.

- ولكنها جريمة، يمكن أن نُجزم أن المحافظ قتله. بشكل غير مباشر مهما يكن، فلا يمنع أن الامر قد حدث على هذه الشاكلة. مارأيك فى فكرتى؟

ومن جديد، لاعب رياض رموشه كشاب مبتدىء لايعرف سوى هذه الخدعة كى يمارس عمله، أراد أن يبين لهيكل أنه يحمل الأفكار الانتقادية. وأنه ينفذ الأمر رغما عنه. ولكن خطته الساخنة هوت فوق الارض. ولم تجد لدى صاحبه أى حماس. قال بشكل سخيىف:

- أن تقول شيئا، تصورت أن هذه الحكاية تعجبك.

قال هيكل حتى لا يخيب أمل الشاب: انها تعجبنى كثيرا.

ابتسم رياض، وأحس أن حركة الرموش هكذا بدت غير مجدية. فأخذ ينتقد المحافظ بشدة، وراح هيكل يباركه، قال:

- لقد استبد بالمحافظ خنزى ملحوظ. إنه يعاملنا كأغبياء. فما قرأته فى هذا الإعلان شديد الغرابة. إنه مثير للدهشة. فهذا الرجل راح بعيدا فيما يتعلق بالسلطة. ألا تعتقد ذلك؟

رد هيكل: ياعزيزى رياض. ما زلت شابا كى تعرف قيمة هذا الرجل. إنه نموذج استثنائى. وهو يعرف ماذا يفعل، وأنا ازداد اعجابا فى كل لحظة به. دعنى أخبرك أن سذاجتك تؤلمنى.

عبرت ملامح رياض الرقيقة الانثوية عن إخفاق لا حدود له. كأنهم أعلنوا نبأ وفاته. بل أكثر من هذا: انهيار الاخلاق التى كان يعتقد أن هيكل يشاركه فيها، بحث عن شيء بسيط يتناسب مع أوهام شبابه، ولكن فكرته بدت فجأة مزعجة عندما سمع الزئير البعيد لصوت عربة اسعاف تشق طريقها نحو الكازينو، راح الصوت يعلو كلما اقتربت العربة، تخترق الهواء بأتينها المزعج المؤلم. كان هذا

الزئير يعلن عن كوارث الناس حولهما، راح رياض يتأمل هيكل وقد لف رقبتة وبدأ راضيا، وكأن صوت نفير العربة يبرهن على صحة رأيه. أدار هيكل رأسه نحو مقصورة المحافظ، الذي بدا وقد تجمد من المنظر الذي أمامه، كان المحافظ واقفا أمام مقعده، فأدار قامته وأخذ يحرك عينيه حوله، وكأنه يحاول أن يفهم من أين يجيء الخطر. مما أعطى الانطباع أنه يود أن يقبض على متمرّد. فجأة سكّت النفير، وانفجرت سعاد في الضحك وهي تنظر إلى هيكل، هذا الذي يستهوى نظر الفتاة، فبدت ابتسامته أكثر سخرية من أى وقت مضى.

(٩)

تحت هذه السماء، راح ينظر من أعلى سطح منزله الشمس الى البحر، نوى كريم أن يقضى يوما مليئا بالأحداث السخيفة، وأن يعطى لهذه الاحداث فرصة الحدوث . عليه أن يمشى بخطى متساوية ، وأن يتوقف أحيانا في ظل الاشجار الممتدة بطول الطريق الترابي . بعين راصدة ، وأن تتجه مشاعره نحو شئ خفى، وأن يهتم بأقل تفاصيل المنظر الذي حوله. كل هؤلاء الناس الذين سيقابلونه، ويسدون عليه الطريق ، ويفرقونه بكلمات مغالية عن صعوبة الحياة . ولهذا كان كريم أكثر الناس سعادة . لاشئ يجعله أكثر متعة من التسكع في الشوارع حسب ظروفه الطارئة والمفاجئة . فكل ما يراه ويسمعه يسبب له سعادة يعجز عن وصفها ويستثير بهجته . حوانيت غارقة في الظل ، وبعض الأقبية المظلمة . قد يقترب من العتبات على أمل أن يلتقط بعض العبارات المتلاطمة . كل ما يبحث عنه وراء هذا ، هو أن بعض الأمور لا ملاسبات لها ، إنه يحب سماع الأفكار المتبادلة بين الادعياء . هناك بشكل خاص جملة يتوقع أن يسمعها كل مرة يدور فيها النقاش بين رجلين . مهما كان مستواهما الاجتماعي . ففي أغلب الأحيان يتعلق بالأوياش المعدمين. هناك دائما من يقول للأخر كمن أهينت كرامته : «هل تعرف من أنا ؟» هذه الجملة تثير إعجاب كريم ، لقد تفنن منذ وقت طويل في اكتشاف مكونات إثارة البشر. يبنى هذا شيئا غير قابل للتفكير، ففي هذه المدينة يتصرف الحفاة كأشخاص مهمين . حتى الحكومة اتخذت من الكورنيش البائس المطل على البحر طريقا حيويا، كأنها تؤكد بذلك ان جنون الكبار يأتي من أعلى . إذن ، فأى مغرور أوياشى يمكن الإمساك به ، وهو يسير على نهج حكومته.

ليس هذا هو هدف نزهة كريم الذى وجد نفسه محشورا - فى ساعة مبكرة - فى هذا الشارع الذى ضربته الشمس . يقابله جمهور متحرر . يمشى الهويناء فى الحر والتراب . قبلا أمس جاءه طلب استدعاء من قسم الشرطة يأمره أن يحضر للاستجواب فى أمر يهم الحكومة . هذا الطلب لم يسبب له قلقا . فقد كان ينتظره ، إنه استكمال مهمة الشرطى الذى نبهه الى ذلك . بسبب هذا الطريق الحيوى . لذا سلك طريقه قبل الموعد المحدد . كى يستغل الوقت . ويعد نفسه للاستجواب القائم على إقامته فى مسكنه الجديد . وبينما هو يتسكع تسامل إذا كان الشرطى العجوز المصاب بالربو والذى تمكن من صعود الأنوار الستة فى الأسبوع الماضى . قد التزم بوعده ، وكتب تقريرا مفصلا . أم هل كان جاحدا بعد أن قبل طائرته الورقية ؟ راح كريم يسترجع المشهد ، وتردد العجوز المولم الذى اعتقد أنه يغويه . لقد نجحت الفكرة فى افساد شرطى مما جعله يضحك ، ولكن الضحكة كانت قصيرة . فهو لم يحس بالسكينة تماما ، فعليه أن يرد أيضا على أسئلة جريئة . وأن ييكى وينتخب كى ينسى ماضيه كئورى . وهذا يتطلب بعض الاستعداد من ممثل يقوم بدوره جيدا . اتخذ شكل رجل خجول . وأعطى لوجهه تعبير رجل أصيب بكارثة ، واقع تحت عبء مسئولياته . للأسف فليست هناك أى مرآة . عليه أن يكرر الأداء بلا نية فى تصحيح أخطاء التمثيل ، بالتاكيد ، لكنه يمكن أن يبدو كئيبا . إنه لامر يبدو صعباً ومنفراً . حاول ان يتخذ شكله العادى ، ابتسم ابتسامة عريضة وهو يسمح تعبير المعاناة من فوق وجهه . بطريقة أو بأخرى . كان واثقا أنه سوف ينفر كل رجال الشرطة الذين يريدون أن يبعده عن مسكنه المريح وأن يلقوا به فى كوخ فى حضيض المدينة . تطلع الى السطح الواسع والى الفضاء أمامه ، إنه من العناصر الأساسية لصناعة الطائرات الورقية.

لقد أصبح الأمر بالنسبة له مسألة سعادة . خاصة أن الطريق أصبح حيويا . إنها قصة جميلة تدفع المرء ان يسبر غور الغباء . كان الأمر الأساسى هو أن يجد الشكل المناسب ، وأن يبدو شخصا متكابرا ومراوفا ومنحلا ، وألا يعتمد نطق أى كلمة ذكية . فهذا هو الخطر الاكبر . فالذكاء مبهر كالبصقة فى الوجه .

ولكن كيف يخفى ضياء عينيهِ اللامعتين . هل يستخدم نظارة سوداء؟ ويزعم أن رمداً أصابهما؟ يالها من فكرة رائعة . لماذا لم يفكر فيها من قبل؟ فالوقت متأخر الآن . وعلى كل ، فهو لا يمتلك نقودا كى يشتري نظارة .

بين وقت وآخر ، كانت عيناه تقع على أحد الإعلانات التى علقها البارحة فى الطريق . تابع مسيرته مع وجه المحافظ ، بدت له فكرة ثرية ، وهو يتابع مسيرته نحو مقر الحكومة إنه نادم لأنه صنع هذا الديكور البشع الذى يقفز إلى عينيهِ فى كل لحظة . كأنه إعلان من الجحيم . كل هذه الصور تعكس مظهر التقوى التى تفتقد المشاعر الروحية تماما . فبعضها يحمل نوايا تخريب بشعة ، شاهد عيني المحافظ وقد نزعتا من مكانها ، أما البعض الآخر فقد وضع له لحية . هذا الخداع البليغ لم يفسده المحافظ فى شئ ، فهو يحس دوما بعرفان الجميل . فمِنذ ظهور هذه الإعلانات أصبح أكثر شهرة من نجوم السينما، وهلل الاطفال لصورته . وتعاملوا معه كفيلم مغامرات . هذا الأسلوب الغريب لا يصدر إلا عن أطفال أثقياء . لم يهتم السلطات سوى أن الإعلانات أثارت تجمعات الناس المؤهلة للمزاح والألعاب الشيطانية بأساليب عديدة . وعلى الشرطة أن تتدخل وتوقف بعض الأشخاص الذين يضحكون أكثر من الآخرين ، بتهمة ممارسة الدهشة . وهذا وحده يكفى . كان هناك دوما شخصان أو ثلاثة أشخاص من مدخني الحشيش فى الغرزة ، وقد فتحت عليهما صورة وجه المحافظ المثيرة للسخرية والرغبة فى القهقهة . لم يستطع هؤلاء أن يمنعوا أنفسهم من الانفجار فى القهقهة ، حتى ولو وقعوا فى قبضة الشرطة الغاضبة . راح العديد من الناس يكيل المديح لمن لا يستحقه . لكنهم ظلوا محتفظين بشرفهم ، مثل هذه الامور اللئيمة الصاخبة التى تتولد فى اللحظات غير المناسبة ، راحت تصنع الزحام فى الطريق العام . ووضعت السلطات أمام اختبار قاسٍ، ضجر جنود المحافظ الذين لم يفهموا شيئا عن هذه البادرة غير الرسمية ، التى لا يقوم بها سوى الثوار .

فجأة توقف كريم ، وقد رأى على مسافة أمتار أمامه حلاقا يفترش أنواته فى ظل شجرة فوق الرصيف . دفعه هذا المنظر أن يقص شعره . وترأت له فجأة

ضرورة أن يقدم نفسه لممثل الحكومة فى مظهر الشخص الذى يعتنى بنفسه ويكن مشاعر الاحترام تجاه السلطات ، فالشعر شىء أساسى ، والشعر الطويل قد يعطى روحاً ومسلكا ثوريا ، فأقرانه أكثر شعناً فى أغلب الاوقات ، ولا يأخذون الأمر على محمل جاد. فى أى خطأ جسيم سيرتكبه ، وكيف يعرف أنهم لن يرغموه على دفع غرامة لو رأوه بهذه «الخلقة» التى تليق بشخص مثقف ضال . قصة شعر رائعة ، تقريبا على الزيرى وكأنه سجين ، سوف تترك أثرها وستعطيتهم برهاننا أكيدا عن احترامه للقانون ، رجل واحد فقط قادر ان ينفذ هذه الأعجوبة . انه هذا الحلاق الجاهل مع هذه الجزة المدمرة .

تقدم كريم مبتهجا ، مشدوها بقراره ، كان الحلاق يقص شعر رجل قصير نحيف ، ذى وجه كئيب ، يرتدى رداءً داكنا مرتقأ ، يتمتع بفقر نبيل ، يجلس فوق مقعد خشبى وقد أسند ظهره الى جذع الشجرة . اغلق عينيه ، كأنه أحد الشهداء يضع ملفا فوق ركبتيه ، افترش فوقه طريوشه البالى .دليلا على أنه موظف ، وكأنه يثير خوف أوياش المكان .

أما الحلاق ، فقد أحنى رقبته أمام زبونه ، وهو يتحرك كأنه يقوم بتحنيط جثة . راح يمرر موسى ذا نصل شديد الخشونة فوق وجنتيه يصدر صوتا أشبه بالمنشار الآلى . لم يزعجهما وصول كريم بالمرة ، فلم يرد أحد منهما على تحيته، اندهش لهذا الاستقبال ، ولكنه واثق فى نتائج الأحداث . جلس الشاب فوق المقعد الآخر الخاوى المحجوز للزبائن وانتظر . وفى الحال أحس بأن هناك أثرا للتغيير مفاجئ فى الجو . انتابته غبطة غريبة ، راح يهتز شيئا فشيئا وقد أحس بأنه فى حاجة الى النوم: طراوة الظل، ورائحة صابون الذقن ، المزوج بروائح مختلطة يعطر البنفسج . أحس بأنه فى جوريفى . فى هذا الحر اللاذع . بدا محل الحلاق المقام فى وسط الهواء ، أشبه بحديقة اللذات ، مكان من الأحلام الممتعة . أراد كريم أن يبقى هناك أطول وقت ممكن دون أن يتحرك ، وأن ينظر فيما يشبه الوعى الى العابرين الذين يمرون حوله ، وأن يتصرف مثل الملاحين المنذرين للنار الأبدية كان يتلذذ بهذا الاستجمام . عندما سُحب بشكل بشع من خدره بعربة يجرها

حمار توقفت لتوها عن القرقة بجوار الرصيف . رأى كريم الحوذى ينزل أرضا ، ويخلص حماره ويمسكه من رقبتة ، ثم يصحبه الى ظل الشجرة كي يكون قريبا من ناظريه .

قال الحوذى بصوت صادر من أعماقه : يا أسطى عبده . هل انتهيت ؟ إنه فى حاجة لأن يجز شعره .. ابن العاهرة هذا .

رد الحلاق وهو يلقى نظرة على الزبون الجديد ذى الأقدام الأربعة . حالا . دقيقة واحدة وسأهتم به .

الحمار ، إنها مملكة ، لعله يفهم أنهم يتكلمون عنه ، اذا راح ينهق بطريقة مزعجة فى أذنى كريم . وخلال لحظة ، لم يستطع الشاب أن يتماسك ، فراح يوجه كلامه الى الحوذى :

— هل ينهق هكذا دائما ، أم أن هذا عيد ميلاده ؟

قال الحوذى : الجو حار . إنه حمار عجوز ، ولكنه طيب .

بدا الحوذى شديد الغلظة ، ولم يتحمل السخرية . فقد جرحه كريم . انتظر ردا لائقا . وأمام الفقر الفكرى لمخاطبه . بدا عصبيا وقال :

— لا أشك فى ذلك . ولكن حاول أن تسكته ، إنه غير محتمل .

راح الحوذى يربت على ظهر الحمار ، ويخاطبه بكلمات عذبة ، كأنه يغازل عشيقته ، ثم ألقمه ببعض حزم البرسيم ، فهدأ الحمار قليلا قليلا .

وداح يلوك فى الفضاء كل هذه الوعود الماكرة . وفى ذلك الوقت كان الحلاق قد انتهى من زبونه الذى وضع طربوشه على رأسه وطوى ملفه أسفل ذراعه . وعندما أحس بأن مشاحنة سوف تتولد قرر ألا ينحشر فى شجار أحد أطرافه حمار .

أمسك الأسطى عبده مجزه واقترب من الحمار وينظرة عصبية لفنان جاءه الإلهام أخيرا . ولكن قبل أن يبدأ مهمته أوقفه كريم بحركة ، وقام من فوق مقعده :

— ماذا يعنى هذا يا رجل ؟ أنا هنا قبله . وأنا مستعجل .

قال الحلاق : معذرة يا أفندم . ولكن هذه عادة قديمة . ولا يمكن أن أجعله ينتظر.

— سينتظر وأنا أكرر عليك أنتى متعجل .

قال الحوذى : هذا الحمار متعجل أكثر منك .

علق كريم . لماذا ؟ هل سيذهب إلى حفل زفاف ؟

رد الحوذى بلهجة مكابرة : ليس لدينا وقت للذهاب لحفلات زفاف، نحن نشغل .

راح الحمار ينهق ، وكأنه يحس بالفخر أنه السبب فى كل هذا . مد الحوذى المجز بطول ظهره وهو يغنى له بصوت رقيق مسموع . انتاب كريم سُخْط فبدأ يثور لكل هذا الاهتمام الذى يلاقيه الحمار . ترى ماذا يكون هذا الحيوان ؟ حمار حكومى ، ربما وزير ، جاء خلسة وراح يتصرف كالموظفين ؟ لم يدهشه هذا فى شئ . فقد شاهد المعاملة الاستثنائية التى يلقاها من الحلاق ، بدا الموقف غير متكافئ تماما بالنسبة لكريم . فغرق فى متاهة . عليه ان يتصرف بحذق كى يخرج دون أية خسائر . فهو لا يمكنه ان يغادر المكان ، أحس أن أمامه ساحة من الجدل المثمر ، لم يكن عليه سوى أن يثريه . فمثل هذه الحالة من الشرور لاتمثل له الشئ الكثير .

رفع كفه ، وبدأ ينظر فى ساعة يده ، واستكمل موجهها كلامه الى الحلاق :

— أَلَمْ تأخذ فى حسابك يا رجل أنتى على موعد مع المحافظ . فتجعل هذا الحمار يسبقنى ؟

سأل الحوذى وقد بدت عليه الدهشة لعلمه بوجود شخص ما : أى

محافظ؟

انفجر كريم : أى محافظ ؟ محافظ هذه المدينة !

ردد الحوذى : هل فى هذه المدينة محافظ . لا تقل هذا أيها الشاب . حتى
استطيع أن أصدقك .

صاح كريم : هذا سر تخلفنا . فأمثالك من الناس يصنعون منا شعبا
متخلفا .

بلغ الجنون حده، أحس كريم أنه غير قادر على إيقاف الآلة التى فتحت
النار . لقد دفعه شيطان رجيم أن يورطه أكثر محاولا أن يدفعه الى ذلك الجدل
العبثى . تردد أن يترك هذا الجو اللطيف الخليل كى يرمى بنفسه فى الشارع
الحار المزعج ، ولضايقات استجواب الشرطة . قال غير واثق فيما سيفعل :
- سأذهب .

ولكنه بقى ينتظر المجهول ، كأن هذا الموقف سوف يسلط ضوءاً ساطعاً
سيكشف له كل وجه البشرية الغامض . قال الحلاق ، وهو يمسك مجزه ويرفعه عن
الحمار الكثيف الشعر .

- انتظر يا افندم . لقد انتهيت . حان دورك الآن .

رد كريم بفخر : لا . لن أكون بعد حمار .. أنت لاتعرف إلى من تتكلم .

فكر الحلاق لحظة ، وهو يرفع المجز . وقد ارتسمت ملامح القلق على وجهه
وسأل محيراً :

- من أنت يا افندم ؟

علق كريم بطلاقة : لن أضيع وقتى لأخبرك من أنا . انشغل بهذا الحمار
فهو الزبون الذى يليق بك .

قال الحوذى وقد اكتسى بتوحش : أنت إذن تشتم حمارى . من أنت كى
تجروا على إهانة هذا العامل ؟

التقط كلمة «عامل» بدهشة من ذلك الأوباشى الرقيق ، فالحمار له حق الاحترام ، ليس كحيوان . ولكن بصفته «عامل».. ولبضع ثوان ، ظل كريم مفتونا بهذا الرد الذى خفف عنه طول الانتظار . ثم أدار ظهره الى الرجلين وألقى بنفسه فى الحر وأحس بالسكينة تهب عليه .

لايمكنه الآن سوى أن ينسحب . فهذه المسرحية عند الحلاق قد أخرجته ، وهو مضطر أن يعجل خطاه كي يصل إلى مبنى المحافظة فى الساعة المحددة لاستجوابه . أحس بالانتعاش وامتلاً بالأمل ، وتنهياً تماماً لمواجهة كل الشرطة الماكره القاسية التى تسبب له الضيق عند استجوابه . راح يقطع الدرب وهو يشق لنفسه طريقاً صعباً بين الجماهير التى سدت عليه الطريق .

توقف لاهثاً كي يفحص المبنى الكبير الأبيض الذى يعلوه العلم ، علم الحكومة . لم يأت هنا منذ وقت طويل ، تردد وهو يجتاز البوابة متذكراً أى سبب حقير أدخله هنا فى الماضى ، عندما كان ثورياً متكابراً كم هو خجول من هذه الذكرى التى تكشف عن غيائه آنذاك . كيف استطاع أن يفهم أنه الأكثر قوة . وأن ادعاءه ليس سوى مبعث للدهشة . لحسن الحظ ، لقد انصرم هذا الزمن البعيد . زمن خفض الرأس ، وارتسمت على وجهه دلائل الخجل والخوف . اندفع عبر الباب الأثرى المفتوح على مصراعيه كأنه مصيدة مستعدة أن تنفلق وتلتهم فريستها . هزته رعشة وانسال عليه عرق بارد . ليس من الخوف ، ولكن من مروره المفاجئ فى ظلال المبنى الضخم . تقلص أكثر . ارتدى زى مواطن لا افكار له أو طموحات مخلوق خاضع لقدره ويخشى كل السلطات . فى هذا الشخص الجديد لم يميز قط أشخاصاً آخرين يملئون القاعة الواسعة بالدور الأرضى . العين متحجرة وباهتة ، تنتقل من مكتب لآخر ، متوجهة نحو عقاب مؤلم . تصرف كريم كشخص يعرف المكان جيداً ، دق السلم الحجرى الكبير . صعد الى الطابق الثانى . رأى «عسكري» جالساً خلف مائدة ، يقرأ جريدته دون أن تتحرك عضلة واحدة فى وجهه . لعله بلاشك . لايعرف القراءة . بل فقط يتظاهر بذلك . مد له كريم خطاب الاستدعاء أمسكه الآخر . وألقى عليه نظرة سريعة ، وقال هامساً :

— اتبعنى .

تبعه كريم فى صمت . بشخصه المسكين المملوك المختال . فتح الحارس الباب، وترك كريم يمر . ثم أغلقه كأنه يوقظ شخصا نائما . زُكِم كريم برائحة مألوفة من صالة الاستجواب . رائحة غامضة تعطى الاحساس أن العبث البشرى يفوح من أناس تثير الغثيان . أناس من كافة الأنواع وكافة الانحاء ينتظرون فوق مقاعد بجوار الحوائط . مجمدين فى استسلام تام ، يبدون كأنهم هنا منذ بدء الخليقة، بدا مظهرهم مغبراً ، وملابسهم بالية . أشبه بتمائيل قديمة تم إخراجها من بعض الحفريات . راح كريم يتأملهم لحظة وقد علاهم الغبار ، كأن شخصا يزورهم لأول مرة ، رفات سراديب الأموات . سحب منديله من جيبه ومسح العرق من فوق جبينه كى يثبت لنفسه انه لا يزال على قيد الحياة . فهم لتوه الحقيقة المؤلة . فكل هؤلاء الناس يمثلون نفس ملهاته . التزموا الصمت واكتسوا بهذه السحنات الشاحبة على أمل وهمى أن يتصوروا أنهم موتى . ليس أمامهم سوى أن يمثلوا لمخالب الطاغية . اعجب كريم من فنهم فى التظاهر ، وكان بالغ السعادة أن ينظر بعين الحسد لمثل هذه النماذج البشرية . جلس فى مكان خاو بأحد المقاعد وقد اكتسى بمظهر المبتئس . ظل ساكنا للحظة ، وحاول أن يتلذذ مع هؤلاء الضحايا الصامتين ، ثم ويكثر من الحذر، راح يخاطر بالقاء نظرة الى أعماق المكان . جلس الضابط المنوب خلف مكتبه يستجوب رجلا ذا عيتين معصيتين ، يبدو أشبه بهيكل عظمى ، كأنه جاسوس فى بلد فقير ومعدم . وعلى مسافة منه يقف شرطيان توارب شوارب كثيفة يرتفعان لأعلى . كان كريم يعرف الضابط . إنه حاتم . نفس الشخص الذى سبق أن استجوبه . فاجأه هذا الاكتشاف وصدمه فى نفس الوقت . فقد اعتقد أن النظام الجديد قد قام بتغيير رجاله . يالها من سذاجة! كان عليه أن يدرك شيئا بالغ البساطة وهو أن سلطة الشرطة الدائمة هى فى امتثالها لكل الأنظمة .

فى أعماق الغرفة . جاء صوت حاتم غاضبا وناقما . بدا الضابط وكأنه يعانى مع زيونه . سمع كريم هذا الأخير يطلق تنهيدة طويلة على سؤاله المكرر ، بدا هزله الشديد وكأنه يمنعه أن ينطق كلمة واحدة . أبدى حاتم دهشته وهو يهز رأسه من هذا الخارج على القانون وحتى لا ينفجر ضاحكا . كان على كريم أن

يتذكر موقفه الحرج ، فهو فى وضع لا يحسد عليه ، وعليه أن يعيد كل خطئه . كيف سيمثل على حاتم الملهة ؟ إنه يعرفه جيدا . وإن تمشى معه حيلته حيث ستبدو تحولاته المعنوية والمادية ، بعد سنوات ، مشبهة أكثر . لذا عليه أن ينوع أدائه ، وأن يدخله فى مسألة الكرامة ، هذه الكرامة التى يتعامل معها حاتم بهمجية ويسعده أن يحطمها . قرر كريم أن يقدم له شيئا من الوقار الشكى كهدية.

وبن انتظار ، بدا حاتم وقد نال ما يكفيه من زيونه وراح يصرفه بحركة غاضبة لأحد جنود الحراسة . وبعد لحظة ، بدأ يتمطع ، تنفس الصعداء . كأنه يتحرر، ثم راحت نظراته تتفحص كل من الأشخاص الجالسين على المقاعد . كأنه يبحث عن شخص بعينه . لأنه فى كل مرة يهز رأسه دليلا على الاخفاق . فجأة لمع بريق فى عينيه، وهو يرى كريم وسط هذا الجمع من الحثالة البشرية . ارتعدت أوداجه وارتسمت ابتسامة رقيقة على شفثيه . كأنه قد كسب جولة جديدة .

صاح وهو يشير بأصبعه الى الشاب : يا كريم أفندى .
قام كريم وجاء ليقف أمام الشرطى . قال بلهجة متواضعة وهو يخفض عينيه وكأنه فى حالة تأنيب ضمير : السلام على سعادتك .
بدا الضابط مبعوتا قليلا، نظر بانتباه الى كريم وكأنه قد خُدر فى هويته
قال :

~ يبدو أننى احلم . يظهر أن الزمن لم يمر عليك . ماذا حدث لك ؟
راح كريم يحتفظ بعينه منخفضتين . ولم يقل شيئا . فهو يعرف أن الانطباع الاول تتوقف عليه بقية الاستجواب . راح يبحث عن كلمات بينما استكمل حاتم:

- اجلس . انت لاتعرف كم أنا سعيد لرؤيتك .
جلس كريم فوق المقعد الذى تركه سابقه لتوه وأطلق نحو الضابط نظرة امتنان :

~ لقد فهمت أننى كنت على خطأ ، سعادتك . ألا يمكن للشرطة أن تتسائلى؟

هاتف حاتم : تتسأك لكنك تركت ذكرى لا تُنسى . لقد كنت مستعدا لتدمير كل شيء . وعدتني أن تقبض علىّ اذا وصل اصدقائك الى السلطة . أليست هذه كلماتك ، أم أنني كنت مغشوشا ؟

قال كريم : إنها غباءات . كنت أمزح مع سعادتك . كيف يمكنك أن تصدق إننى كنت أتكلم بجدية ؟

— ماذا تقول ؟ هل تعاملنى كغبى ؟

— ليحفظ الله سعادتك . استطيع أن أقول إن هذه الأشياء كانت فى لحظة ضلال . ثم لقد نسيت ، سعادتك ، أن هذا كان فى ظل النظام القديم .

— أمر جميل . هل أنت ثورى أم لا ؟ هل يمكن أن تفسر لى فيم يعجبك النظام الجديد أكثر من الآخرين ؟

صرخ كريم بصوت رفيع من الصعب أن أشرح ذلك . لكن هذا شيء يُحس به . لا يوجد أى شك أنه نظام جيد ، وأن الجو تغير . على سبيل المثال، الآن اذا مشيت فى الشارع فإن درجات الحرارة تبدو أقل .

— آه ... درجات الحرارة أقل . هل هذه هى كل المزايا التى تراها فى النظام الجديد ؟

— للنظام الجديد بلاشك مزايا أخرى ، ولكننى ربما لم ألاحظها ، سعادتك . انتهى الكلام ، بدا كريم فخورا بوجوده ، بينما بدا الضابط متجهما ، ومن الواضح أن الشاب يلف به . أنه بالتأكيد يسخر منه ، لقد كان يعرف تماما عقلية كريم ، ولاشئ يجبره أن يسلك طريقا مخالفا . إذن هناك سر يناضل أن يعرفه . ويجب أن يعرفه .

انتظر حاتم مجابهة مع خصم جموح . موجود أمامه . ورغم كونه رجل شرطة ، فإن لديه فرصة ، فى بعض الأحيان ، أن يعجب بالشجاعة القوية لروح الثورى التى تحرك الشاب . وهو سعيد أنه يحقق معه من جديد . فهو يتعلم أشياء كثيرة من هؤلاء الثوريين . أشياء جيدة للغاية ، ومن مركزه الأعلى . فحاتم يدرس كافة التفاصيل المتعلقة بموضوع الاستجواب . لذا يعاملونه كضابط مثقف . قادر

أن يحتفظ في رأسه بمعلومات شاملة عن هؤلاء الشباب المجانين الذين يريدون قلب نظام الحكم . في الحقيقة فكل معلوماته في المهنة تتلخص فيما ينتزعه من استجواب بعض السياسيين . وهذا ما يريده من كريم في موقفه الساخر . ابن الزانية هذا لم يوضح له شيئاً عن موضوع الاستجواب سوى أن الجو أقل حرارة الآن منه في ظل الأنظمة الأخرى ؟ إنه يسخر منه بالتأكيد .

راح الغضب يعتمل فيه ، ولكنه كان سعيداً . تأمل الشاب بعين الطبيب الفاحصة القلقة باحثاً عن تشخيص للمرض بأقل درجة من العناء . لم يبد من كريم أى رد فعل . ظل محتفظاً بموقفه . وهو يكتسى بالتواضع المتساوى والواقع عليه . جحظت عيناه حاتم . أنه في قمة خيبة الأمل . خيبة حقيقية وهو يرى نفسه يتقبل توبة الشاب . لكن لاشئ يدفعه أن يصدق . اللهم الا أن هذا أمر بالغ السهولة . الثوري لا يتغير . على الأقل بهذه الطريقة . إنه مثل الشرطى لا يمكن للنظم السياسية أن تراه من داخله .

أطلق تنهيدة تسليم تعنى أنه لم يتنازل عن موقفه . ثم فتح الملف الذى أمامه وأخذ يتفحص بعين منهكة ومتعبة . ثم راح يقرؤه ، أصبح وجهه أكثر تعباً . وكأنه يبحث عن دليل يمكن أن يؤدى بالمستجوب إلى الاعتراف ، فجأة رفع رأسه وتأمل الشاب من جديد ، ثم تفجرت عيناه بعاطفة ما . بدا وكأنه يقتفى شيئاً أكثر مهابة .. أما كريم فكان يخفى رجفة خفيفة من الخوف جعلته فى رهان مع نفسه على إحباط محاولات خصمه .

— حسبما قال المخبر الذى زارك . يبدو أنك تعمل ، وتصنع طائرات ورقية ليس كذلك ؟

— الحياة صعبة ، سعادتك . وأنا أفعل ما بوسعى .

— حسناً . كلمنى قليلاً عن الطائرات الورقية . كيف هى ؟

أوصلت نظرة حاتم المليئة بالشك - مضيقه بهذا السؤال الغبى إلى قمة الميلودراما الساذجة . فهل يشك الضابط أنه يستخدم الطائرات الورقية لتصوير الأهداف العسكرية ؟ ولم لا ؟ فكل شئ جائز فى خيالات الشرطة .

— إنها طائرات ورقية صغيرة . سعادتك ولا ضرر منها . ماذا تعتقد ؟

— لا عليك عم أعتقد . ولكن فيم تستخدم ؟

— تستخدم في تسلية الأطفال . لا أكثر .

لم يبد حاتم مقتنعا . أما كريم فكان يعاني إنه لا يستطيع أن يفجر القيد الهائل الذي يخنقه . استمر الضابط في مواجهته بتحد ، فهو لا يوافق ببساطة على حكايته . وهو على يقين أن الطائرات الورقية تُستخدم في بعض الأمور السرية . لكنه تردد أن يرتقى فوق هذه الرمال المتحركة . المليئة بالمكائد، وأن يخاطر بأن يفقد مهابته . أخذ يحرك يده وكأنه يحاول اصطياد ذبابة، وكانت هذه طريقته في ترتيب الأمور .

قال . لندع هذا الآن . أخبرني عن رأيك في الوضع العام بوضوح .

— أعتقد أن كل شيء على ما يرام . سعادتك .. أنا لا أرى شيئا يمشى بشكل غير طبيعي . أحس أن الشعب مبهتهج . وأنه صورة نموذجية من السعادة .

— حسناً، دعني أخبرك أنك متفائل جدا ، هناك أيضا أوغاد ، وأقذار يقومون بإثارة الأمور ، يبدو أنهم ليسوا سعداء من النظام الجديد ولا من غيره . ماذا يجب ان نفعل كي نعجبهم . أنا أسألك ؟

— لا اعرف ، سعادتك ، فأنا لا أشتغل بالسياسة ، وسوف أتزوج قريباً .
بدت هذه الكلمات الأخيرة على حاتم وكأنها كارثة . سأل بوجه يكسوه
الاشمئزاز :

— هل ستتزوج ؟

رد كريم بصوت رجل سوف ينتحر . أجل سعادتك .
أغلق حاتم ملفه بكل صلافة . وبدت الحركة وكأنها أبعدت الشاب من عالمه
قال وهو زائغ البصر :

— حسناً ، الآن ، يمكن ان تبقى حيث أنت . ولكن حذار . فعند أقل خروج
على الشرعية سوف استدعيك من بيتك .

استعد كريم لأن يشكره عندما انفتح الباب في هذه اللحظة، وظهر المحافظ

شخصيا . قام حاتم ساجيا معه كريم ، وأيضا مجموعة الاشخاص الجالسين فوق المقاعد . ولثوان ظل المحافظ واقفا عند عتبة مكتبه ، يفحص الصالة بعينيه الجاحظتين ، ثم راح يمشى ، وهو يخيب ساقيه المتموجتين وكأنه يمتطى حصانا ثم وقف قبالة كريم ، الذى أخذته المفاجأة ، وأسرع نحوه ، وأمسك يده وقبلها وهمس ببعض الكلمات غير المسموعة . ثم عاد الى مكانه وهو يلهث كرجل فوجئ بسعادة غامرة لا يستحقها . لم يهتز المحافظ قط . ولم يتراجع فى خطاه . فقد اعتاد مثل هذه الأمور . واستمر فى الخيب ، فوق حصانه الخفى ، ثم خرج أخيرا من القاعة .

ترك المشهد الذى لم يتوقعه كريم جائئاً منهارا تماما . فقد حاول أن يمنع معتقداً أنه يهجم عليه . ولكن ما رآه كان أشد من هذا . فقد انقلبت الدنيا . وهذا الكريم الذى يعتقد أنه يعرفه قد أصبح فجأة غير محسود الجانب . تأمله بعين مندهشة وكأنه ينظر الى حيوان لزج ، راح كريم يرمقه بعينين بالغتى النقاء . لقد خاطر أن يستخدم كافة أساليبه من أجل أن يبهر حاتم . وأن يقدم البرهان الاكيد لتوبته انه لا يشك أن مهمته قد نجحت .

أشار له حاتم بالجلوس . قال :

— يا إلهى ، أنت تدهشنى أكثر فأكثر .

— لماذا ؟ سعادتك .

— من الصعب على أن اصدق أنك فعلت هذا . أن تقبل يد المحافظ

قال كريم : ليس هذا مدهشا ، فالمحافظ أبونا فى كل شىء على الأقل هكذا أراه .

فكر حاتم للحظة . فاهتمامه بالشاب بدأ يزيد . وفى هذا السقوط المثير الباد أمامه بلا مقياس ، لم تنتابه فكرة براقة بصفته شرطيا ذكيا . ربما كل شىء لم يتضح بعد .

— اذن ، مادام الأمر هكذا ، ربما نستطيع ان نتعاون ، لعلك لاتريد ، أليس هو «أبوك» ، كما تقول . هل علمت بموضوع الهجوم البشع ؟

- لا طبعاً ، ماذا يمكننى أن افعل ؟ .

- أريد أن أعرف رأيك فى بعض الإعلانات التى ظهرت أخيراً فوق جدران المدينة .

سأل كريم ببراءة : أي إعلانات ؟

قال حاتم : سوف أشرح لك . إنها إعلانات تصور وجه المحافظ الى جوار كلام مكتوب ملء بالتقريظ . تقريظ كريم . هل رأيتها ؟

- هل هى الإعلانات التى تتكلم عنها ، سعادتك ، بشرفى ، إنها إعلانات جميلة للغاية . فى كل مرة أرى واحداً منها . أقف لأتأملها ، لدرجة أننى حفظت النص عن ظهر قلب . هل تريد ان أسمعك لك ؟

- وفر عليك تعبك . وأخبرنى هل يمكنك أن تدلنى الى مصدر هذه الإعلانات . من طبعها ومن علقها على جدران المدينة ؟

- طبعاً سعادتك ، أعتقد أنها شئون المحافظة . فهذه الإعلانات لاتقول سوى الحقيقة عن محافظنا العبقري .

- انت مخدوع . فشنون المحافظة لم تطبع هذه الإعلانات، ألا تعتقد ان زملائك القدامى قد فعلوا ذلك ؟

هتف كريم : ياله من يوم أسود ! أنا مندهش . لماذا يتفنن زملائى القدامى بمدح المحافظ ؟

- لعل جنونا أصابهم . أحاول أن أفهم .

حاول حاتم أن يكشف مدى الارتباك الذى سببه له ظهور هذه الإعلانات بحثاً عن أقل بادرة يمكن أن تمده بأمل يتوصل به إلى منظمى هذه الحملة المسمومة التى تأهبت لها كل شرطة المحافظة ، وموهبتة كضابط ماهر لم ترق إلى أي درجة من الشك، فهذه أول قضية من نوعها يراها منذ عشرين عاماً انشغل فيها بالقضايا السياسية . عمل مهيب، وفى نفس الوقت بالغ الخطورة يخرج تماماً عن المألوف . لم تتوصل تحريات الشرطة الى نتيجة فى أى مكان . تسأل حاتم عم اذا كان قد دخل عصراً ثورياً جديداً ، يلزمه أن يعاود النظر فى طرق التحرى لقد

ولد أسلوب جديد . وظل هناك كغبي ، يجهل مصدره وأسبابه مما يصيبه بالحسرة
- إذن، فأنت لاتعرف شيئا .

لم يكن هذا استجوابا حقيقيا . ولكن هناك محاولة أخيرة لامسك معصم
الحقيقة . بدا كأنه يسمع إجابة كريم بلا أمل كبير . رد كريم بصوت رخو وهو يدقق
في الضابط بنظرة فارغة المعاني :
- ابدا سعادتك .

غزا «حاتم» احساس ثقيل بالفشل . واكتسى وجهه بالاحفاق . لقد انتهى
الاستجواب الى فراغ . لم يأخذ شيئا من هذا الثوري التائب . الذي سيتزوج عم
قريب . ويصنع طائرات ورقية لتسلية جموع الخاطئين . هل يمكن أن يسقط في
حضيض أشد عمقا ؟ لقد باغته وسبب له نوعا من الندم العبثي . ترى هل هو من
طراز الثوريين الضائعين ؟ لايزال لديه الكثير منهم . فكل المنتقمين يستعدون لزرع
الفوضى في طريقه . طالما أن شيئا ما مات لتوه . مجرد شعلة بسيطة من حريق
ضخم . يكاد أن يحرق العالم .

اتكأ على مكتبه . وغطى جبينه برأسه وقال دون أن ينظر إلى كريم : يمكنك
أن تذهب الآن .

قام كريم وحيا الضابط وهو ينحني أرضا . ثم استدار وولى . وفي الممر
أطلق غمزاته الخفيفة من رأسه يمينا ويسارا لهؤلاء البائسين الذين عليهم النور
من بعده . ولكن هؤلاء لم يعيروا تحيته أى انتباه . خرج الى القاعة وأغلق الباب
خلفه بهدوء . وكأنه يظهر مافعله للحاجب .

وبعد قليل توقف في الشارع الذي بدا خاليا تماما . تحت ظل شجرة .
واستدار كي يفحص الطريق . وعلى مسافة تفصله كثيرا عن مبنى المحافظة . حيث
اختفى المبنى الأبيض الكبير بعيدا وسط ضباب الحر وبدا أشبه بسراب . أحس
كريم أنه خرج من حلم .

(١٠)

راح كريم يتابع الأرداف الذابلة أسفل الملابس الخفيفة للنساء وهو مستند على سور الكورنيش الحجري. وقد حُلب تماماً باختلاف أوزانهم، إنهن هناك من كافة الأشكال والأحجام، وفي الضوء الرمادي، علامة غروب الشمس، تبدو هذه الأرداف المهتزة وكأنها تمتلك حياة ذات إيقاع واحد وتعقد مع كريم اتصالات رقيقة لذيدة، فصاحبات هذه الأرداف في أغلبهن دميمات ولا يثرن الرغبة لدى أى قاتل ساد، لم ينتبه كريم كثيراً إليهن. لم ينظر الى وجه امرأة إلا نادراً. فقد كن بصحبة رجال بدناء متجهمين يلبسون ملابس الصيف: من الاقمصة القصيرة الاكمام حتى البيجامات القطنية، يقرقزون لب البطيخ ويرعبون زوجاتهم وبناتهم ويلقون على كريم نظرة فلاح حذر يحرس أبقاره ضد لص مرتقب. راح كريم يرد بسخرية على نواياهم الخبيثة. يحدث هذا كل مساء، النزهة المعهودة للأسر من أجل الترويح عن النفس، وشم هواء البحر عقب حرارة النهار الخانقة. كان هذا المهرجان من الأرداف يمثل الإيقاع اليومي لكريم، الذي نزل من السطح من أجل السهر، يتحين فرصة تواتيه أحياناً بأن يجد امرأة وحيدة، مستعدة للمغامرة، فيروح يمارس هوايته البسيطة والبدائية. فكريم يعرف كيف يتصرف مع النساء مثلاً تصرف مع ضابط الشرطة، إنه لا يخاطبهن بكلمات ذكية خشية النفور. فالغباء علامة أكيدة أن الحياة تدور.

لكنه لم ير أحداً يأتى في هذا المساء. فالصيد نادر، إنه هنا منذ ساعة، ولم يصطد أى فريسة. فكل النساء يعبرن في صحبة. أو إنهن خادعات دميمات يسبحن في أثرهن أطفالاً أصغر سناً. بدأ كريم يحس بالعصبية، فهما عاشقان

متشابهكى الأصابع حتى لايفقد أى منهما الآخر يمران من أمامه، تبدو عليهما العجرفة والكبرياء. ويشكل الى راح كريم يتتبع ردفى الفتاة، فجأة هفت ذكرى فى مخيلته، لم تكن سوى ذكرى مضاجعة، لان هذه تذكره بوجهها، إنها الغانية اللطيفة الصغيرة التى أواما ذات ليلة ولم تعد إليه ثانية، لقد أخبرها أن عليها أن تعتبر منزله بيتا لها .. وتصرف بكرم معها، حقا إنه فى هذه اللحظة لم يتمسك كثيرا بها. كان ذلك بمثابة دعوة عابرة من أحد أن يلينها ويستميلها أكثر فى مسألة المال، ربما أنها فهمت نيته. لقد غمرته موجة من الشفقة، شىء غريب، فوجه الغانية الصغيرة مائل فى مخيلته، أصبح بالنسبة له وجها مألوفاً منذ أمد طويل مألوفاً، مثل وجه أمه. ندم فجأة لتصرفه الشديد الحقارة مع هذه المسكينة. ترى أين يمكن أن توجد الآن؟ ود أن يبحث عنها. خاصة أن شرطة المحافظ تطاردها وتمنعها من عملها، انها ايضا ضحية لهذا المحافظ اللعون.

بالنسبة لهذا الأخير، فإنه قد مر الآن حوالى أسبوعين على استلامه رسالة هيكل، الذى يطلب فتح باب الاكتتاب الشعبى لإقامة تمثال للمحافظ ، لقد نشرت كل الصحف الرسالة فاثارت الدهشة بين الأشخاص الأكثر ارتباطا بالمحافظ وسلطته الديكتاتورية، وانتشرت الاقاويل بأن محافظ العاصمة تضايق من هذه الشعبية ، وبدأ يتصرف كرجل قادر على تنظيم دعاية جميلة لأهدافه الخاصة. ففى هذه الاثناء راح المواطنون الذين لايعرفون من أين تاتى الرياح، يتعجلون كشف الحقيقة. فالتقود تهب من كل مكان، وقيل أن هناك قفة سماوية لاتنضب ابدا، فقائمة المتبرعين تُنشر كل صباح فى الصحف. وكريم نفسه يود أن يذكر اسمه فيها وأن يساهم بقرش لحساب التمثال، ولكن لدرجة أن بعض القراء المجانين والاقل وعيا، كتبوا للصحف بمقترحات عن تمثال صديقهم والمحو الى مكان مفضل يوضع فيه التمثال مستقبلا. وبلغ الهذيان قمته. واقتربت اللحظة التى اقترح فيها هيكل أن ينفذ حيلة هزلية جديدة اذا لم تنجح هذه الأخيرة عن ابعاد المحافظ للأبد، كان على كريم أن يذهب إليه هذا المساء ليناقشه فى الأمر، فقد هزته مسألة المحافظ فجأة، لكن يجب عدم تجاهل الأمور غير الظاهرة. ففى أعماقه، إن كريم يتمنى أن يستمر المحافظ بضعة أشهر، وهى الفترة التى سيتم

فيها نحت التمثال . كم غريب أن يرى المحافظ جالسا فوق قاعدة. وهذا شيء محتمل الحدوث.

حل الليل بطيئا ، وأضيئت المصابيح، فجأة نثرت اساورها اللامعة كالألئ بطول الكورنيش أصبح الهواء أكثر قابلية للتنفس وتأخرت نسمة المساء . هبت رائحة الذرة المشوى ممزوجة بصيحات الباعة الجائئين . خلا الكورنيش شيئا فشيئا من العائلات . لم يبق سوى بعض العشاق . انحشروا في الاماكن المظلمة من أجل لمسات سريعة مثيرة للخجل .

شرد كريم بعيداً ، أحس باليأس من لقاء الفتاة ، لاحظ شبح رجل يستند على السور. على يساره بمسافة، أدار الرجل رأسه بسرعة حتى لا يرى وجهه. كان يقف خلف دائرة الضوء الساقط من المصباح القريب، صدم كريم في هذا الموقف المباغت وهذا التصرف اللئيم، فالمتنزه الوحيد الذي يختفى في الظلام هو طاهر صديقه القديم في الحزب الثوري، لم يره منذ أمد طويل، إنه واثق أن بصره لم يخدعه. فقد حدده بنظرة واحدة، فبالنسبة له كان شبح طاهر معروفا تماما في ظلام الليالي، خفق قلبه. وأحس بالخيبة، ارتبك للقاء زميله القديم، فجأة انتابه شك مرعب، فهذا اللقاء بعيد عن المفاجأة، يبدو أن طاهر يتجسس عليه منذ وقت طويل. ترى ما السبب؟ لماذا لا يأتى ليحييه. إنه يعرف طاهر جيدا، لذا يردد هذه الاسئلة، قطاهر مؤامر بطبعه. يقدس المناورات والدروب الطويلة الخفية. ولا يمكن أن يقترب من شخص دون أن تلوح حوله بعض الاتهامات المريبة. قرر كريم أن يتركه يلهو. فلديه بعض الوقت ليضيعه قبل أن يذهب الى هيكل.

راح يمشى ببطء كي يمنح طاهر فرصة للتجسس عليه. كم مزق قلبه أن يجد نفسه مُجَدِّداً في صحبة طاهر. لم تكن لديه أى رغبة للنقاش معه في المسائل الاجتماعية والسياسية. فهما منفصلان تماما الآن. بالاضافة أن طاهر لا يميل الي التراجع ، ربما سيعامله بقسوة. لم يستطع أن يبعد عن ذهنه بعض الذكريات المشتركة ، لقد ترك في نفس طاهر بعض الأحداث المدمرة، فقد تم القبض عليهما معا، ودخلا السجن معا، وكان الصديق الأكثر قربا منه روحا.

أحبه وأعجب بنبيله اللامبالي، وشجاعته فى الخصومة . كان صبيبا ذكيا لامعا، ينتمى لأسرة من العمال الفقراء تقتطع من خبزها كى تدبر تعليمه، وقد تخرج من المدرسة بعد دراسات مناسبة، ورفض كافة الاغراءات الكريمة كى ينضم الى الثورة منذ كان ضد السلطة.

فجأة لمعت فكرة، بدا كأنه نساها تماما من ذاكرته، لقد لاحظ الآن أن طاهر يمسك شيئا فى يده، تذكر أن زميله اعتاد أن يتنزه دوما مع قنبلة من صناعته. وعندما سألته إذا كان يعتمد عليها من رأسه بكل ثقة وبصوت أجش: «الأقدار يستحقونها، سأجد مكانا لإلقائها»، كان كريم واثقا أن طاهر لم يفقد قط أساليبه الغريبة. هذه اللقافة التى يحملها يمكن أن تكون قنبلة ويخاف من محاولة اغتيال ضده شخصا. يمكن لطاهر أن يلق هذه القنبلة فى وجهه ويلا شفقة مادام أنه يعتبره خائنا. فهو يعرف عقليته ونظرته لشرفه الثورى، فطاهر لا يتردد فى إلقاء قنبلة على أمه إذا لم تتفق مع رأيه، ازداد اضطرابه، راح كريم يبحث عن وسيلة للهروب من هذه الورطة، فأخذ ينظر قلقا الى الكورنيش الذى خوى من المتنزهين، لم ير ركنا مناسبيا للاختباء، لم ير سوى عربة بائع ذرة مشوى واقفة فوق الرصيف تحت ضوء المصباح، هل يختفى خلف العربة؟ غيبى، فسوف تقع العربة عليه، ثم إن التاجر يتأهب لغلق محله وكأنه يتوقع اقتراب كارثة، أسرع كريم الخطى، وأحس كم هو سخيىف ولم يجرق أن يستدير ليرى إذا كان طاهر لا يزال يتبعه، ناداه صوت أجش . وأوقفه:

— يا كريم، لست فى حاجة للهرب منى.

استدار كريم وابتسامته تغطى شفتيه، وتصرف كامرأة تقابل عشيقها القديم الذى خائنه وهجرته، فتح ذراعه علامة على حسن الاستقبال:

— سلام، يا أخى طاهر، يالها من فرصة سعيدة ! كيف حالك؟

أراد أن يأخذ طاهر بين ذراعيه، ولكن هذا راح يعانقه وهو يعود القهقرى،

رد طاهر:

— على مايرام، وأنت، هل تقضى وقتا سعيدا؟.

- طبعاً، صدقتنى، كم أنا سعيد لرؤيتك، فأتنا لم أرك منذ وقت طويل.
قال طاهر: معذرة، فقد كنت فى السجن، ومن الصعب على ارتياد
الصالونات والمقاهى.

بدأ وجه طاهر شاحباً غائر العينين من الحرمان والمغامرات التى لا حصر
لها، مما يدل على أنه متبوء تماماً، ينعكس فى عينيه تحجر شديد يميز المناضلين
الذين ينشدون مثالية بعيدة، رفق كريم بكل احتقار، وأحس فيه بشئ غامض،
شئ من التعاطف لزميل خان القضية، لكنه ظل دائماً حاضراً فى الذاكرة. بدأ له
أن كريم ينظر إليه بعين الاتهام، بنظرة قاض لا يرحم، شخص ماهر ساحر
ومدهش له مثل ظروفه، فى كل الفصول، كان يرتدى بدلة قديمة رمادية اللون،
مرتقة، وقميص بياقة منشأة ورباطة عنق داكنة، هذا الزي الخشن لموظف صغير
يتناقض مع وجهه الثورى، كأنه شخصان متراكبان، كان مبدأ طاهر أن على
الثورى الحقيقى أن يرتدى ملابس بسرعة، لذا انكر السلوك البوهيمى لبعض
الزملاء، كان دائم الشجار مع كريم لأن هذا لا يرتدى رابطة عنق،

أريكته ثقة زميله، لم يعرف كريم ماذا يقول؟ فالسجن لم يغير «طاهر»
كثيراً فهو يأخذ كل شئ بجدية، أحس بالذنب لأنه هنا، يبدو مزدهراً، أمام هذا
الخارج من أعماق الزنزانة الذى يتهمه ويلعنه، رغماً عنه، لم يكف عن النظر إلى
اللفافة التى أمسكها طاهر فى يده، أنه خجل من جنبه، ولكنه أقوى منه، ارتعد
وهو يفكر فى القنبلة، لاحظ طاهر قلقه وهو يطلق تهيدة متشنجة فبدأ كأنه وجد
شيئاً يبعث على التسلية.

قال بكل جمود: لا تقلق، فهذه اللفافة ليست قنبلة، أنها أحذية قديمة أحملها
إلى «الجزمجى»، لقد انفصل الكعب تماماً، وانت ترى أننى مضطر للمشى حافياً،
احتج كريم حائراً: كيف لك أن تعتقد ذلك؟

ومع ذلك أخفض عينيه كى يتأكد من حسن نية طاهر، رأى زميله حافياً
وظل للحظة مذهولاً لا يستطيع أن يخلص عينيه من قدمى طاهر، إن ياقته بالية
كما أنه حافى القدمين، يالها من فكرة ساخرة! تردد كريم بين الضحك والعزاء.

- أنا أسف حقاً يا أخى طاهر .

- لا تأسف على شيء، الأمر لا يهم، لقد عانيت من كافة المآسى، ولست فى حاجة لأن أعيش فى شقة تقع على السطح. أحب القصور كى أدمرها.
هتف كريم: إنها غرفة البواب.
ثم أكمل بصوت خفيض: كيف عرفت أين اسكن؟ بشرفى انت تتجسس على..

ابتسم طاهر بسخرية. وكأن كريم طفل ساذج وعليه أن يعرفه. قال
- نحن نعرف كل شيء عنك. أنت تتصور نفسك ذكياً. ولكننا نعرف كل شيء مما تدبرون أنت وزملائك. هل تعرف أن الشرطة ألصقت فينا عبثكم. لانستطيع أن نتحمل طويلاً. ولهذا أردت أن أتحدث اليك.
كان يهمس كمؤامر، رغم أن الكورنيش خال من كل أنفاس البشر. سأل كريم وقد أثاره هذا الهمس:
- أى عبث؟

- هذه الإعلانات التى تتملقون فيها المحافظ، هل تعتقد أننى لا أعرف مصدرها؟

- فيم تزعجك؟

- انها تجعلنا أغبياء أمام الشرطة. ولا أحب هذا، فلسنا مهرجين .
انتابت طاهر فكرة أن الشرطة تعامله كشخص هزلى ينتهج أساليب بدائية لقلب السلطة، فهو يحس بسعادته كثرى، حين تلقى عليه مثل هذه الاتهامات. بكل ماضيه كمناضل، وكل هذه السنوات فى السجن، تخيل سقوطه بين ايدي الشرطة فملأه الغضب . وزاد ألمه الداخلى بالشجن، من زميل النضال القديم. هذا الخائن الذى يوجه له مثل هذه الإهانة. قال كريم:

- لا تتفعل، فالشرطة لاتشك فيك قط. إنهم يعرفونك بما فيه الكفاية ويدركون أنك من الجادين.

وأضاف كأنه يكلم نفسه: مثلهم.

سأل طاهر بحدة ماذا تعنى؟

- أعنى أنك بعيد عن الشبهات، فالشرطة تعرف أن الثوريين من طرازك لا يرتكبون هذا، أنت لاتعرف أن الأمور تغيرت ، إنهم فقط يثرثرون معك أثناء الاستجواب، ثم إن الحكومة تمارس أساليب البوليس السياسى التى يستخدمها أيضا الطبيب النفسى، إنهم يعرفون كل شىء عنك، ويعلمون أنك لايمكن أن تغير اساليبك الى هذا الحد.

قال طاهر بنبرة مريرة فى صوته: على كل، فقد تغيرت.

ثم راحا يتكئان على السور أمام البحر، صامتين، وقد ضاعت النظرة فى هوة عميقة، سوداء تمتد أمامهما، أحس كريم بالارتياح، لكن طاهر شعر بالاحباط، وارتقاب الهزيمة أو الموت، فلم يستطع أن يعرف أى سكينه، استدار ببطء نحو كريم، كأنه ينتظر منه حركة أو كلمة ندم أو أسف، لقد جرب كافة الارهايب الملتزم بعمليته والمضطر لاستكمال واجبه الدموى، ورغم المحبة والمودة التى تربطه بضحيته. فإن قلبه يدمى، أراد أن يتوسل الى كريم كى يتخل عن جنونه ويعود الى مثاليته السابقة، أغرقت الشفافية وجهه النحيل، وكأنه يسكب الدموع.

هذه النظرة الملقاة عليه أوحزت كريم كأنها سهم ، فقلبه ايضا يدمى. أراد أن يحدث ذلك لطاهر ليذكره بالأوقات العصيبة، التى فاحت بعفونة البؤس والمعاناة، لقد مارس السلام مع هذا العالم البشع الكريه، إنه لايريد أن يغير شيئا، فهو يأخذه على علاقته، بعرجه وعميانه كشخص فى حاجة ماسة للحب، لم يؤمن كثيرا بمأساة الشعب، هل كان ثريا؟ لقد كان الاكثر فقرا بين الفقراء، ومع ذلك فهو سعيد، راح يناضل فجأة ضد هذا الشبح الفظ القادم من الماضى كى ينتزع منه بهجته، وقال بلهجة مليئة بالاستفزاز والكبرياء .

- أجل، لقد تغيرت، وأهنىء نفسى على ذلك.

استند طاهر عليه، وقد تشبث بيطن سترته، ثم اتكأ على السور:

- هل تعرف أن زملاء نا مسجونون ويتعذبون، بينما أنت تتسلى بتعليق

الصور على جدران المدينة تمدح فيها الجلاذ.

- اسمع يا طاهر. بعد كل شيء أنا لم أخذك وما أفعله لا يمكن قط أن تفهمه، ولكن اعرف أنها الوسيلة الوحيدة لمحاربة المحافظ.

ضحك طاهر ساخرًا : يالها من طريقة غريبة ! اعرف استاذك ، لقد سمعت كلاماً عنه. فهو من نفس جنس المحافظ، رجل ثرى يعيش كالامراء. كيف يمكن أن يفكر فى ألم الشعب؟

هتف كريم: لاتمس هذا الرجل، فأننا أحبه، اسمعنى، وصدقنى، لن انفصل عنه قط. ولو طلب حياتى ، فلن اتردد فى الموت من أجله.

أحس طاهر أنه قد أفرغ دمه، فقد هزه عنف هذه المشاعر كأنها سبة موجهة إليه، إنه يحب الشعب، ولأن كريم جزء من هذا الشعب، فقد احتفظ نحوه بعواطفه وثقته، وغفر له دناءته، وقد تمنى دائماً ألا يكون انفصالهما سوى حدث عابر، وأن يعود كريم طواعية الى الثورة، ولكن هاهو يراه بعيداً عنه، بمثابة التى يحارب ويعانى من أجلها إنه يراه مرتبكاً فى عالم جديد تماماً، حيث هو، طاهر، غير معجب به، استبدت به الغيرة، وانفتح فى قلبه جرح غائر. بدا له الليل مسمماً، بلا نجوم ولا بحر ولا عقد اللؤلؤ الذى ينساب من المصابيح ذات الأقواس اللامعة، كل هذا لم يستطع أن ينقذه من هذا الموت المقبض، دام الامر لحظة، ثم جاءت حقيقة الثورة لتنتزعه من الآمه، وقد دفعه فضول مريض أن يقترب من الرجل الذى يضعه كريم - بكبرياته الجهنمى - فى مكانة أعلى من الشعب المقهور، فإذا تمكن أن يكلمه لحظة فى حضور كريم، فسوف يتمكن من تدمير هذه الهالة التى فى مخيلته، سوف يكشف له الغرور، والعدم، ومكر الغواية التى تنسم به هذه الروح الخادعة، المنغمسة فى النعيم، إن له تأثير الساحر فى السيرك ، ربما سيفهم كريم آنذاك كم هو مخنوع، وأن كل هذه المحاولات الغبية لقلب السلطة مصيرها الفشل، وسيعود الى مبادئه الكريمة لمعركة حقيقية. هذه المغامرة تستبد به بجنون، ومن ناحية أخرى فهى ضرورية له، فهو فى حاجة الى كريم من أجل مهمة قادمة - من أجل خدمة الثورة، لقد جرب طاهر كافة محاولات الاغواء، وعليه أن يستخدم حيلة أكثر مرونة لايقاظ ضميره الثورى لدى بعض العمال العاطلين، قال بهدوء يثير الدهشة :

- أريدك أن تفعل شيئاً ما من أجلي.

- ماذا إذن؟

- حسن ، أريد مقابلة هذا الرجل الذي تحبه كثيراً ، وبالعيش والملح الذي أكلناه سوياً ، أقسم أن توصلني بهذا الرجل، أحب أن أتحدث معه.

حاول كريم أن يبتسم، تجهم وجهه فجأة، فقد بدا هذا الكلب وقد أسعده بشكل ملحوظ، قال:

- بكل سرور، أنا واثق أنه يحب أن يتعرف عليك. أنت تعرف أنه متعدد الأفكار، ويهتم بكافة الأنشطة الإنسانية.

قال طاهر وقد فوجئ بهذه البساطة، كأنه وقع في فخ: أنا سعيد بالتعرف عليه ، هل يمكن أن تصحبني إليه هذا المساء؟

- كما تشاء، الآن أنا في طريقى لمقابلته، يا عزيزى طاهر، أتمنى أن نعود من جديد معاً، فانا لم أكف عن التفكير فيك.

في هذه اللحظة، لاح شبح شرطى يمشى بخطى وثيدة بطول السور، وقف أمامهما، تجمد الشابان من المفاجأة ، فهذا ممثل النظام يبدو كفول جائع لمهمة هامة على الكورنيش، انتظر في صمت أن يكشف لهما طبيعة التهمة التى يوجهها لهما.

زمجر الشرطى: التجمعات ممنوعة، هيا، انتشرا..

قال كريم مفتوناً بهذا النزول الطارئ: لكننا لسنا سوى اثنين.

رد الشرطى اثنان أو مائة إنه نفس الشئ. هيا انتشرا.

وتابع سيره بطول السور فى صمت. هتف كريم:

- هل سمعت يا ابن العاهرة؟

قال طاهر: إنه شخص مسكين ينفذ الأوامر، إنها ليست غلطته. علينا أن نعلمه.

- بشرفى أنت مجنون، هل تعتقد أننى سأعيش آلاف السنين. ليس أمامى سوى بضعة سنوات، وتريدنى أن اقضى وقتى فى أن نعلم هذا القاتل اللصاح المسلح.

هز طاهر رأسه بحزن، كشخص لا ينتظر فهما من مخاطبه . عليه أن يسرع الآن لرؤية هيكل وأن يواجهه بما يفكر فيه، قال،
- حسن، هيا، ولكن يجب أن أرتق الحذاء عند «الجزمجي».
- في مثل هذه الساعة لا توجد محلات تصليح أحذية مفتوحة.
- ماذا تعتقد، أنا لا ألبس حذاء من عند «جزمجي» رأسمالي، إنه زميل يحرس محلا مفتوحا طيلة الليل. وأنا على موعد معه. وهو ليس بعيدا عن هنا ..
تعال معي.

هز كريم رأسه بالموافقة ، ثم وضع ذراعه تحت ذراع طاهر وراحا يضريان الطريق. عبرا الشارع وغرقا في أعماق المدينة، تاركين الكورنيش خلفهما . وبعد التحيات، جلس الثلاثة في صالون هيكل، وقد التزموا الصمت. بينما راح «سرى» الخادم يقدم المشروبات المرطبة وكأنه يمشى أثناء النوم منذ أمد طويل. لم يتوقف «سرى» عن القيام بواجبه. ولكن أياً منهم لم ينتبه إليه. فاهمية هذا اللقاء وغرابته تسمح للمرء بالشروء. انتهى «سرى» بوضع ثلاث زجاجات من مشروب الورد فوق المائدة الصغيرة المنخفضة، خرج من الغرفة، ولم يقطع الصمت شيء.

راح هيكل يتأمل طاهر بفضول عالم أثرى يدقق في قطعة نادرة. فهو ليس حزينا لهذه الزيارة، طالما أنها تتيح له الفرصة أن يدرس زميل كريم القديم عن قرب. إنه أكثر ثوار المدينة خطرا، شعر أنه متأهب للانقضاض، ولكنه بدا بالغ الادب، ولا يجزى على قطع الصمت بكلمات لثيمة. جلس على طرف المقعد عبوسا وخجلا، لأنه استقبل إثنين من «الغلبة». كانت النظرات التي القاها على كريم بليغة المعنى ، وكأنه يعتبره مسئولا عن ذلك الموقف الصعب. انتظر هيكل بفارغ الصبر أن يعرض عليه شكواه. فكر في أن طاهر قد وصل به الامر أن يأتي لبيته. وأنه جاد في رؤيته يعمل، ترى أى برهان عليه أن يقدمه له. لمواجهة مفاهيم غريبة من شخص يختلف عنه شكلا ومضمونا، راح هيكل يشن من الشفقة. فالنضال أمر غير شرعى، ترى هل جاء هذا الرجل الكهفى المتعصب للعنف. ليثير استفزازه وماهى الدوافع التى وراءه ؟ هل يملكه احساس بالضيق ؟ وهل يجب أن يكون

الثورى مصابا بالمرارة والزوجة، فلا يستطيع مقاومة جاذبية السخرية ؟ بدت له حالة الرقة التى اكتسبت زائره، وكأن طاهر قد جاء له يعلن حبه وليس لعناته.

كان فى اعماق طاهر صخب واحتجاج، ونوع من النفور، تماسك فى نفسه وبدا أشبه برجل تحاصره الفئران. فزميله «الجزمجي» قد أعاره صندلا كان يملكه زيون ميت، زادت عصبية وهو يحرك ابهامه عبر رقائق الجلد. لم يعرف السبيل لبداية الحديث، إنه ينتظر لطف وجاذبية مضيفه، الذى يرتدى روبا قرمزيا، وقد بدا وراء المائدة كشخص من عليا القوم يستقبل زائراً تافها، الشيء البشع حقا أن طاهر يعي فقره. انها المرة الأولى فى حياته التى يحس بازدياد المناسبة، أحس بنفسه ضائعا فى الصالون البرجوازي ذى الاثاث اللامع، والمقاعد الذهبية المكسوة بالقטיפى الحمراء التى بدت له بشعة، هو الذى قضى عمره فى الاكواخ والسجون - يرى الآن الثراء أمام عينيه - تمرد طاهر ضد الثراء وليس ضد الرجل الذى شرفه فى منزله، لان مفاهيم هيك، مشوشة. ويجب أن يبلغه أنه لن يقترب قط من رجل من طرازه، فهو ليس جلادا ولا عبدا، ولكنه يناضل السلطة بطريقته، طريقة مشينة يدفع فيها دماثة ثمنا لتمرده، لم يفهم طاهر التمرد نون جرعة ما من الحقد، لم يتذرع بالصبر وهو يكشف فى بيت هيك كافة ما به من أسباب الغضب الذى يكنه لكل المخلوقات الظالمة. بدأ يتصرف بغباء تجاه خصمه، وكأنه يتمتع بإفراط بساطة وهدوء طاهر، أحس بإهانة لاتغتفر لنضاله الأبدى الذى لا جدوى له. ربما أن هذا كله ليس سوى خدعة. يمكنه أن يبحث عما يفويه، ويجذبه لعالمه المائع والهش، لم يترك نفسه تفعل، فحضوره هنا بهدف إزالة مخاوفه من هذا الأرستقراطى ذى السحر الخفى لعله ينقذ كريم من الدمار الذى يهزه. بدأ - هيكل أفندى ؟ لقد أتيت ..

قاطعه هيكل بصوت رقيق وهو يرفع يده بحركة هادئة. اعرف لماذا جئت هل يمكن أن تنتظر، دعنى أولا أعبر لك عن سرورى لحضورك. رد طاهر، لقد أتلجتى طيبتك، ولكن معذرة، ليس هذا وقت المجاملات. جئت لأتحدث معك، لقد قلت لهذا المرتد - وأشار الى كريم بإصبعه - عم أراه فى نشاطك، فهو يتعارض مع شرفنا الثورى. لأن الشرطة تلصقه بنا، أريد أن أعرف

بالضبط ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

ابتسم هيكل بأدب جم أمام هذا الهجوم من شخص وغد ساذج، لقد راح طاهر يدافع عن شرفه كثرى، كل ما ينشده ألا يصل الأمر إلى الشرطة، أى ثورة وأى هياج فى الصوت يتجاوزان شرفه ، تماسك وهو يبدى احتراما لجلاده، أى موقف ساخر، ومع ذلك لا يستطيع أن يحطم الدائرة التى حبسته فيها السلطة الدموية، إنه يمارس لعبة الشرف والأخلاق مثلما علموه أن يفعل، ولم يخرج منها قط، فهو ليس سوى سجين زنزانة. لأن الموضوعات التى أسس عليها نشاطه كانت هى نفسها التى يستخدمها الخصم، خشى هيكل ألا يرى ضيفه قسوة عينيه، فقد يشجع هذا ضيفه، قال وهو يكسب وجهه ملامح المفكر

- حسنا تكلمت عن اللعبة، لأننا نلعب جميعا ، أليس كذلك يا طاهر افندى؟
أنا أسف بشدة أن لعبتى لم تعجبك، وسببت لك الملل، لكل إنسان الحق أن يعبر عن تمرده بأسلوبه، أما أسلوبى فهو لم يتغير، وهو ألا أقترب من الأبرياء، أطلق طاهر كلاماته باحتفاء . هذا لعب عيال، أنا لا أشك قط فى ذكائك، يا هيكل افندى ، لكن سامحنى أن أخبرك أنك تتسلى بينما الشعب واقع تحت قهر، لا يجب النضال بهذا الأسلوب، يجب أن ترد على العنف بالعنف، ولا يهمنى الأبرياء.

رد هيكل: العنف لا يتناسب مع هذا العالم الهزلى - لأن هذا هو ما يبحث عنه الطغاة، نحن لا نأخذ الأمر بعين الجد، لانرد على عنفهم بالعنف، ونكشف لهم أننا نعاملهم بجدية، نؤمن بعدالتهم وسلطتهم، ونساهم فى تعزيز مكانتهم، أما نحن فنساهم فى تعزيز خسارتهم.

- أنا لا أؤمن بهذا الأسلوب، وادعاءك لاتستند على قاعدة تاريخية، كل هذا ليس سوى قصصاً من الملهاة الماسخة.

- من الأساليب الأكثر سهولة أن تتبع الطغاة فى أرضهم، وتصبح هزليا أكثر منهم، الى حيث يذهبون أذهب أبعد منهم، وسوف اندفعهم أن يجربوا السخرية ، كى احقق فرحتى الكبرى.

صاح طاهر ولكن هناك الشعب المسكين، لقد نسيت الشعب الفقير، إنه لا يضحك.

- علمه كيف يضحك يا طاهر افندى ؟ هذا سبب نبيل.

قال طاهر بصوت جاف: لا أعرف، أنا نفسى لم أتعلم الضحك. ولا أريد أن أتعمله.

أثار هذا الاعتراف الحزين، بدا الاعتراف أشبه بحب مستحيل ومؤلم. أحس هيكल بأنهيأ سعادته. حقا إن طاهر يجهل الضحك، وليس عليه سوى أن ينظر اليه كى يقتنع. لقد تعصب تماما لفكرة الكفاح المسلح مستهلكا وقته فى تدبير المؤامرات، تتسلط عليه مأساة الشعب. يبدو مخلصا للأسى. إنه الموظف الأمثل للثورة. لا يعير اهتماما لى شىء خارج الدور الذى يؤديه ، ولا يؤمن بالنقد القدرى، تحوطه أنانية مضاعفة، يطول انتظارها تتضاعف أعدادها فى مجموعات ، ثم تظهر من جديد وتكشف نفسها. قال هيكل:

- إذن، أخشى ألا تسخرون من الطغاة. يجب على كل واحد منكم أن يضحك من الآخر.

- أى حدس هذا يا هيكل افندى، ألم تنتابك قط فكرة امكانية النضال ضد الطغاة؟

- إنه طاغية ميت، طاغية يثير السخرية. ويثير المتعة.

عقد طاهر يديه ، وهو يتحرك فوق مقعده. كأنه فريسة لغمزات العار. إنه واثق أن هيكل يستعمل لغة مجنونة كثيرة التناقض، بهدف أن يخذله. لقد جرو أن يكلمه عن البهجة والمتعة. وهو الذى لم يعرف قط سوى آلام الجوع. لقد كشف أخيرا عن وجهه الحقيقى، انسلخ خجل طاهر كاشفا عن الفكرة المريرة والغير محتملة، التى دفعت كريم للامتنال لمكر هذا الرجل المقنع فى صورة داعية للسلم. فكريم يملك قلبا كريما، هل تدنى الى حد أن يصبح شريكا لرجل مخادع؟ رفق طاهر زميله القديم بنظرة زائغة، وكأنه يأمل منه المساعدة، فى الحقيقة لايمكن لاي خيانة أن تفسد الأمر . لكن كريم لم يبد قط واعيا لموقفه المريب . راح يلتقط أنفاسه، ارتسمت ابتسامة على شفثيه، نظر الى هيكل الذى بدت كل كلمة من كلماته كأنها حكمة خارجة من فم خطيب. بدت التبعية شاملة، وأحس طاهر بالحزن:

- لم تقل شيئاً أيها الخائن.

استدار كريم نحو زميله، ملدوغا، خارجاً من المتعة التي اغرقته فيها إجابة هيك. انفجر:

- ماذا يمكن أن أقول لك؟ أنا متفق في كل شيء مع هيك. وما قاله يمكن لطفل أن يفهمه. ولكن أنت أصم. أنت تحمل شرفك الثوري كامرأة حامل فخورة ببطنها، بشرفي. أنت تؤلني.

- هكذا نمارس الخيانة، نسب مانعبد، الكلب أحسن منك.

تدخل هيك. يظاهر أفندي. لا تظلم صديقي كريم. فربما أن لديه شيئاً آخر الآن. من حقه أن يتغير، لا تنس أن الأفكار تتطور.

علق طاهر. ولكنه لا يفكر في شيء بالمرّة، إنه متملق، وأنا أعرفه، يتصرف كأنه يحب الشعب كي يحس بمتعة السخرية منه. لقد خدعه وخدعني في نفس الوقت.

قال هيك. لا تكن ظالماً. فكريم لم يخدع أحداً. فهذا الأمر يتطلب طموحاً كبيراً. وليس لكريم أي طموح. إنه فقط يحب الحياة.

- هذا ما يزعمه. لو كنت مكانك لارتبت فيه. هل تعرف يا هيك أفندي أنه اعترف لي أنه مستعد أن يفديك بحياته لو سألته ذلك؟ هذه مبالغة أليس كذلك؟ ومع ذلك يبدو لي مخلصاً. لقد كان كذلك عندما أراد أن يهب الثورة حياته.

صاح كريم: ليس نفس الشيء. أنت تخلط الأوراق أيها البائس. ليس حبي لهيك بهدف سياسي. أنا لا أحبه كي أخلصه من ضغط عليه. فهو حر. ليس عليك سوى أن تمارس حبك لشخص ينشر السعادة لمستقبل الشعب المسكين.

سأل طاهر وهو ينظر إلى هيك بطريقة ملتوية: أريد أن أعرف أي رجل أنت كي تلهم المشاعر لمثل هذا القمىء؟

- أنا رجل بسيط يظاهر أفندي. فقط أنقل آرائي للآخرين عن الشرف والكرامة. أنتظر شيئاً آخر ممن هم على شاككتي. صديقي كريم حر في أن يغير غداً طريقته في التفكير. وأنا لا ألومه في ذلك. لأنه مهمل فعلاً، لن يصبح مثيراً للملل وهذا شيء مهم.

- ما هو أهم شيء في الإنسان حسب رأيك؟

– الكمال الرائع الذى أحسه معه. وخاصة فى أكثر الأشياء بساطة فى الكون. هذه أشياء تفرحنى. وهكذا تعرفت على ثراء الحب المحبوس داخل الإنسان.

يا له من أسلوب بشع وكريه، فهذا الرجل مازال يكلمه عن البهجة، هل يؤمن بها حقاً؟ ألا يوجد بالنسبة له شيء سواها فوق الأرض؟ هذه الأرض الخربة، التى أحرقتها البشر ألف مرة. كيف يجدها مكانا للحب والسلام؟ يجب أن يكون وغدا كى يجامل هؤلاء المصابين بالهذيان ومهاويس السعادة. مع ذلك فإن «هيكل» ليس وغدا ولا مجنوناً. إنه يريد أن يسلى الشعب ويعلمه الضحك من الطغاة. من السهل أن تقول هذا. ولكن الشعب أمامه أشياء أخرى عليه أن يتعلمها. وجسامة مهمته تجعله مريضاً بالأمل.

عامله هيكل برقة، فأحس بالسعادة فى أعماقه. ولم يكن هذا النموذج الثورى مصدر تفاهة. إنه بالتأكيد محل تقدير. هذه السترة البالية والياقة المنشأة ورابطة العنق المشدودة حتى طرفها. تعكس مواقفه تجاه بهجة مجتمع يريد أن يلحق به الضرر. إنه ثورى. لكن بكرامة، يرتدى نفس زى الخصم ومستعد أن يأخذ مكانه. أى نموذج رائع فى هذا العصر. أراد هيكل أن يتبناه. وأن يحتفظ به على مقربة منه. كنموذج للسخرية، ولكنه كان حلماً موهوساً، فهو ليس ثرياً بالقدر الكافى كى يشتري شيئاً بهذه القيمة الغالية.

بدا له أن الصمت، وهذا المنظور الذى يحمله، يدفعان طاهر التماسك. قال محطماً الصمت.

– هذه الحقائق التى تتكلم عنها يا هيكل أفندى صادرة عن وغد. هل توافق أن يكون الوغد مصدر بهجة؟

رد هيكل: الأوغاد هم من يقتلون البهجة حولهم، ويمكنهم أن يتصرفوا باستخفاف. إنهم يشيرون عصبيتى. لكنك لست من هذا النوع من البشر، يا طاهر أفندى. أنا أعرف كافة طبائع البشر. لماذا تحرص على الاحتفاظ بهذا القناع الذى يجعلك تعاني؟ أنا واثق أنك يمكن أن تغدو مازحاً وتافهاً. وأحب أن أراك هكذا يوماً.

ارتبكت أفكار طاهر، وأحس أن هذه الكلمات المعسولة تبدو مثيرة للربح
فهيكل يعامله كرجل تافه ، وهذه أكبر إهانة يمكن أن يوجهها لكبرياء مناضل .
أدار وجهه وكأنه يخفى شحوبه. أحس أن عليه أن يسرع لملاحقة العالم القلق الذي
ينتظره في الخارج. على الأقل فهناك يمكنه أن يحس بالقهر. ولكنه لا يحس أبدا
بالتعاسة.

رفع هيكل كوب العصير الدافئ فوق المائدة المنخفضة أمامهما، وقال
موجها كلامه إلى ضيفه:
- في صحتك ياطاهر أفندى.

بدا طاهر وكأنه لم يفهم .. وبشكل ألى رفع كوبه. وأراد أن يضعه على
شفتيه. لكنه تردد لحظة. حطمه فجأة فوق الأرض، وقد بدا عليه الغيظ والغضب.
وكان هذه الحركة قد أعادت له كرامته.

انزعج كريم من تصرف زميله الغريب، التصق بمقعده يترقب رد فعل
هيكل، ولكن هذا ظل ساكنا، ثابتا إزاء استفزاز مضيفه وقد اصطبغ وجهه
بالحمرة. بدا وكأنه يعامل طاهر بكافة أنواع الأدب.

دخل «سرى» الخادم الغرفة محدثا قرقرة نون أن ينبث بكلمة، وراح يحمل
بقايا الزجاج. لم يتكلم أحد. بدا الجميع كأنهم ينتظرون أن ينتهى من تنظيف
الأرض، وعندما خرج الخادم بعد قليل، قام طاهر ونظر إلى هيكل برهة، ثم هز
رأسه ويكل تتأقل اتجه نحو الباب.

غادر هيكل الأريكة وتبعه ، ولبضع ثوان وفقا مترددين عند عتبة الباب. ثم
قال هيكل:

- لم يكن هذا الشراب مسموما ياطاهر أفندى. إنه عربون الصداقة.

لم يرد طاهر، فجأة أمسكه هيكل من كتفه، وراح يضمه إلى صدره:

- أنت رجل شجاع يا أخى طاهر، وخسارة أن تكون ضائعا.

سأل طاهر بصوت أشبه بصرخة مخنوقة. ضائع من أجل من؟

رد هيكل: من أجلى أنا وحدى، إذهب الآن، تصحبك السلامة .

ثم استدار وواجه كريم الذى كان ينظر إليه فى صمت رهيب.

(١١)

راحت الصغيرة تأكل المثلجات وهي تنظر إلى هيكل من «تحت لتحت». لا توجد أى معان خفية فى هذه النظرة. ولكنه حياء من أعلى الدرجات. بدت كأنها امرأة واعية تماما لفرجها. هزت ملفعتها طويلا وهي تتحرك بنوع من الشراهة الأثيرية. تصرف هيكل وكأنه لا يراها، فغريزة الإغراء تدفعه أن يخفى نقاط ضعفه حتى ولو مع طفلة صغيرة، تبدو فى الثامنة من العمر وتضع شريطا أخضر على شعرها المجدول بضفيرة واحدة، فوق ظهرها تبدو بالغة الجمال. ولكنه ليس هذا الجمال الكريه لأطفال أصحاب ياكسون جيدا ويكرهه هيكل بشدة. إنها ناعمة الملامح، وتبدو بعض علامات الحزن فوق ظهرها فى عينيها مؤكدة أن هذا العالم يؤلمها. لذا حاول هيكل أن يهتم بها. هذه الكاتبة الطفولية التى تكاد تصل إلى حد اليأس. كانت فى صحبة أمها. أقرب إلى النمرة الشرسة. يرتسم الغباء على وجهها، رغم مكانتها الاجتماعية، وضعت حول ذراعيها سواراً ثقيلاً من ذهب. عندما راحت تتكلم إلى ابنتها، أحس هيكل أنها تكاد تنكفىء على نفسها. وكأنها خجلة إنهم يشركونها مع هذه المخلوقة الجالسة أمامها. شكت الأم ظاهريا من هذه المنافسة، لأن نبرات صوتها كانت موصومة بحقد أبويها تجاه ذريتها المتمردة، وكأنها تود أن تنتمى إلى جنس آخر غير جنس نويها، تمنى هيكل لو تموت هذه الأم أو تختفى فى الفضاء، يا للأوياش المرعبين. إنه يعانى من أجل الصغيرة بسبب نظرتها المثيرة، لذا بدأ يتطلع إليها.

كان هناك القليل من الزبائن فى صالة الشاي التى تقع بأحد أحياء المدينة الراقية، إنه على موعد مع سعاد، وفضلا عن الصغيرة وأمها، لم يكن هناك سوى

مائدتين مشغولتين بنساء يتناوان الكعك ويتكلمن بصوت خفيض. بدا هيكمل مغموما لشراهة المرأتين، ثم تابع حوارهما المدهش مع الصغيرة. أحس هيكمل أنه مشغول بهما، أراد أن يعرف شيئا عن هذا الخيال الطفولي، ماذا عليه أن يفترض في الأمر؟ أحس أنه اكتفى بإخفاء قلقه، فغير أسلوبه، وراح يحديق فيها بشدة، أخفضت الفتاة عينيها، وقد احمر خداهما. ملأ هذا الروغان «هيكمل» بالراحة، وأصابه الأنين بفكرة مجنونة اعتملت فيه، أن يمسك الفتاة من يدها، ويذهب بها تحت بصر أمها الخائفة، وهو واثق أنها سوف تتبعه.

نظرت إليه الصغيرة هذه المرة بعينين حزينتين وكأنها سوف تسكب الدمع. وقد شكت في قدرته على إنقاذها، وأن يتزعجها من أمها المتوحشة؟ بدا لهيكمل أنها تنتظر منه بادرة أن يقوم وتتبعه. ولكنه أدرك أنه يهذي، لم يتمكن قط أن يرضى هذه الرغبة الجامحة التي تستبد به في كل مرة يرى طفلا في صحبة أبوين غير جديرين به. ابتسم للفتاة وكأنه يعلن أسفه. شيء غريب، يبدو أنها فهمت، فقد هزت رأسها فجأة برقة. وأحس هيكمل بقلبه يغوص في صدره. فأغلق عينيه كي يفلت من هذه الرائحة المغموسة بالبراءة.

وقفت سعيدة فجأة أمامه. لم يعرفها هيكمل لتوه، فهناك تغيير واضح عليها، كانت تضع شعرا مستعارا فوق رأسها. وقد سويت عينيها بالكحل. بدت شفاتها شاحبتين، إنها تتصرف كامرأة. وقد اكتسبت ملامحها بجمود غير متوقع. إنه تنكر حقيقي. لاحظ هيكمل تفاصيل أخرى أكثر دهشة من كل هذه «المسكرة»، فالفتاة قد وضعت قرطا في أذنها من الحجارة الكريمة الكبيرة. غالية الثمن، لم يعلق بكلمة. لأن ذلك بلا شك ما كان ينتظره.

جلست أمامه، واللحظة، تصرفت بكل سخرية، كشخص يضع قناعا ويقوم بحركات إيمائية من أجل التعرف عليه. احتفظ هيكمل بمظهره البارد، بدا كأنه لم ينتبه إلى هذه التغيرات، صدمت بهذا الفضول الضائع، ونظرت حولها على أمل أن تعجب الحاضرين، ولكن قلة الزبائن خيبت أملها، وعادت نظرتها إلى الشاب ولم تتردد كثيرا في أن تسأله:

- كيف تجدنى؟

قال هيكل: رائعة، أنت تذكريننى بجدى.

بدأت الفتاة الصغيرة مستاعة مصدوعة، ولكن هذا لم يتفق مع نمط جمالها الجديد. لقد فهمت لتوها النظرة الباردة التى ألقاها هيكل عليها؛ فقد تجاوزت برغبتها كافة الحدود التى تفصلها عن الطفولة للأبد، إنها الآن امرأة. تعرف أن ذلك تجاوز كل رياء وتفاق بنى جنسها.

كفت فجأة عن الاستياء، وقالت بلهجة امرأة أنضج من سنها:

- يجب أن تكون لطيفا معى لأننى جئت لك بخبر مدهش.

- أحكى، فأنا أسمعك.

- حسن. لقد حدث اليوم أن جاء المحافظ لرؤية أبى. احتدمت بينهما مشاجرة حامية، سمعت كل شىء فالمحافظ لا يريد أن يصدق أن أبى لا علاقة له بموضوع التمثال. واعتبره مسئولا عن موقفه.

قال هيكل: من الحق أن يغضب هذا الرجل، لعله كان يؤنبه.

- والسبب عظيم أنت لم تعرفه .. فالمحافظ إن يستمر أكثر من أسبوع، لقد أجبره الوزير أن يقدم استقالته. هل أنت مبسوط؟

راح هيكل يفكر فى الخبر. فوجيء أنه لم يشعر بأية فرحة عارمة. أحس أن فراغا سيتولد لديه باختفاء المحافظ، وكأنهم قد نزحوا عنه لعبته التى يعرف وحده كيف يديرها ويتمتع باستخدامها. فقد كان المحافظ بالنسبة له طيلة الوقت مصدرا لا ينضب من السعادة فوق هذه الأرض. يا الله. سوف يخسر النبع الذى يغذى روحه الانتقادية، خشى هيكل أن يحل مكانه موظف تافه، طاغية. قصير الأمد، ليست لديه خيالات مريضة كسابقه. لأن قدر الطغاة يثير عصبية أكبر من جرائمهم. ماذا يمكن أن يفعل فى زمن تافه يسوده الملل؟ استبد الحزن بهيكل لأن عليه أن يعتمد على المصادفة فيما يتعلق بالمستقبل.

نظرت إليه سعاد بعينين زائغتين كانت تنتظر بركانا من السعادة. لم تفهم

صمته:

- لم تقل شيئاً .

- إنه خبر ممتاز، معذرة، أنت تستحقين مكافأة.

وأمسك يدها من أسفل المائدة وقبلها برقة، وهنا رأى في أصبعها خاتماً من الياقوت النقي، حجر كريم مذهش، سقطت عليه عيناه وكأنه إشراقة مفاجئة في الظلمات، لم يبد أية دهشة، وضع يد الفتاة فوق المائدة، بدا الخاتم شيئاً حياً تأملته سعاد بنظرة مرعبة، قالت دون أن تبعد عينيها عن الحجر اللامع:

- ألسنت مندهشاً لرؤيتي بهذا الخاتم؟

- لماذا اندهش؟

- آه، أعرف لا شيء يدهشك، فأنت قليل الاهتمام بي، لذا فأنا بالغة

التعاسة

- انت تعيسة، مع كل هذه الجواهر.

- لم أخبرك بكل شيء في مسألة المحافظ، فأنا الضحية،

- كيف هذا؟

- حسن، لقد ارتاب أبي في أمرى فيما يتعلق بالشيك، لقد أُلح بذلك في الصحيفة التي أرسلته لها، ولم يكتشفني مباشرة، ومع ذلك لم يكف عن التلميح بنويائ إزائه.

- هل يجعلك هذا تعيسة؟

- لا، ولكنه الآن يريد أن يتخلص منى، لا يريد أن يرانى أُلح حوله، ويصر

أن يزوجنى، ألا ترى أنه عقاب شديد؟

- لكن ، ماذا تفعل المجوهرات في ذلك؟

- لقد فهمت، فأنا لن أتركه يفعل، أحبته إننى لا أريد الزواج فهذا يورطنى

فى المزيد من المتاعب، وكى يغربنى، أعطانى مجوهرات المرحومة أمى، التى يحتفظ لى بها فى خزينته حتى أكبر، ولكنه قرر ابتداء من الآن، إننى يجب أن أتصرف كأمراة فى سن الزواج، يريد أن يكون صسهره القادم أهلا لكل الثروة التى أحملها.

- إنه على حق، فهو يعرف نوع الرجال الذين يناسبونه، يمكنك أن تنامي
قريرة العين، فسرعان ما ستجدين زوجا.

- إذن، فأنت لن تغضب منى.

- لا تتمرفى كضحية، ستكونين سعيدة فى زواجك.

- لا أستطيع أن أفعل شيئا آخر، طالما أنك لم تطلب ذلك منى.

قال هيكل بشكل قاطع: أنا لا أحب المجوهرات.

وهكذا انتهت علاقة غرامية، نهاية أكثر سخرية من المتوقع، فهيكل لم يأمل
فى شيء، ولم يشعر بأى يقين إنها ليست سوى بضعة مجوهرات. لقد اختفت
العاشقة الصغيرة، لم تبق سوى امرأة صاحبة حظوة وثروة، إنه لم يعتمد على
ممتلكاته المادية، كفت فجأة عن التسلية كى تعود إلى عالمها العفن، لا يستطيع أن
تنغمس سوى فى الخداع، فالخداع أساس حياتها، وهى واعية له، لقد استخدمت
أفضل مواهبها، كى تروى عطشها من القرور والانتصارات السهلة على الرجال.

أراد هيكل أن يسكب بعض الدموع على تلك المخلوقة المذلة التى اختفت
من حياته، ولكن عينيه جامدتين، بدا أله نوعا من الطيبة والتخفف، انتابه
الإحساس بأنه يولد من جديد، حرا، ملاء شعور باليقين، نظر نحو الفتاة الصغيرة
التي تكره أمها فوجد وجهها وقد أمتلأ بانتعاش برىء كاد أن يفقده، انتهت من
التهام المثجات، وانكأت على المائدة، وضعت يدها فوق خدها بشكل عبوس، أحس
هيكل أنها مستاعة منه قابتسم لغيرتها، تمتعت سعاد:

- كيف أتصرف، كيف أستطيع ببساطة أن أتكلم مع رجل آخر، لقد
عرفتك، ليس فقط لأننى أحبك، بل لأننى سوف أصاب بملل حتى الموت، أنا التى
يشتيهها الناس.

كان يعرف أن هذا ليس حقيقة، وأنها سرعان ما تتقبل بشاعة العالم الذى
تعيش فيه، هذه البشاعة لاتبهره كثيرا، اختفت وراء بريق الجنس الثالث
والأقنعة، ورغم كل المحيطين بها الذين تبدو صحبتهم رائعة، فإنها لم تجد سوى
الرعب خلف هذه الوجوه المبتسمة المشوهة بجمالها، كان يعرف خطر القرور

على المرأة . إنها تصاب بالملل عندما يكف الإعجاب من حولها . لكن سعاد جميلة بما فيه الكفاية ولن تصاب قط بالملل .

لكن فيم الخداع ؟ لقد نفذت دورها بمهارة وحذق . كما أعجزته كنوز جسدها اللدن بشكل يستأهل الاحترام . وعليه ان يتبعها في وساوسها ومخاوفها . فهو ليس تاكراً للجميل . إنها في حاجة لبعض من رفته . قال .

- علمتك أن تتمتعى من كل شئ في العالم . اذن لا تخشى شيئاً . وان تصابى بالملل .

سألت : هل تفكر في ؟ - ثم وبحركة تلميحية - : ولكن ليس بطريقتك الساخرة ؟ فأنا أعرفك .

- سأفكر فيك بكثير من الجدية . وأعدك بذلك .

وظلا لحظة صامتتين . ثم فتحت سعاد حقيبتها وراحت تعدل مكياجها . بدا هيكل مبهورا بالطريقة الذى تسلكها وهى تقوم بهذه اللمسات . إنها المرة الأولى التى يرى فيها الفتاة تهتم بمثل هذه الحركة البذيئة . تضع أحمر شفاه فوق شفيتها الفاغرتين . بدت فخورة بأنها أصبحت فى مصاف النساء .

انتاب هيكل ضيقا وبعض الغيظ لرؤية هذا التلطيف الذى يدنس الصورة التى أراد أن يحتفظ بها للفتاة . أدار رأسه منتظرا أن تنتهى من عملها الفاحش . وعندما استعدت . قام . وخرجا من صالة الشاي ثم افترقا فى الشارع .

أتى الشارع لهيكل بمشاعر جديدة . كان يئن وهو يتنفس بصعوبة . فهو حساس للوعود المتراكمة فى طريقه . هناك وجوه أخرى . ومشاعر أخرى تنتظره . فكر أن حبه الفقيد قد اتسم بنقاء غريزى . هكذا دائما تنتهى كل مغامرة . لقد جرب شعورا غريبا من السعادة . وكأنه ترك للمرأة التى انفصل عنها جزءاً من مشاعره . أما الجزء الباقي فعليه أن يصوغ فى العالم كله .

ذكره زحام الشارع ان أحدا من بين ذلك الحشد الذى يقابله لا يشك فى وجود شئ مهم يعرفه هو وحده . فسوف يقدم المحافظ استقالته قريباً . أحس هيكل بغتة أن هذا شئ يثير السعادة التى يدخرها لأصدقائه . أسرع الخطى

وراح يبحث عن بائع الياسمين الذى يتجول عادة فى هذه الدروب ، رآه واقفا فى ركن من الباب ، أشعث الشعر وبداى الحزن رغم الزهرة الحمراء التى يضعها فوق أذنه . اقترب منه واشترى باقة رقيقة من الياسمين دسها فى جيب سترته الداخلى . ثم أوقف عربة . وأعطى الحوذى عنوان عرقى .

كان جالسا فوق قمطره . فى صالة الفصل الخاوية . راح عرقى يركز انتباهه فى الكتاب الذى يقرؤه . كان ضوء النهار يتسرب من الأبواب الأرضية . ولكنه ضوء باهت شاحب كأنه الزنزانة . ترك عرقى قراءته ورفع نظارته ودك عينيه بانزعاج . امتلأت رأسه بأفكار مريرة . تتعلق بموضوع أمه التى تسبب له حرق الدم . كان يشك فى القرار الذى اتخذته . فأحد أصدقائه الأطباء نصحه أن يضع العجوز فى مصحة للعناية بها بأحدث الأساليب . هناك أمل ضعيف أن تتحسن صحتها . ولكن هذا الأمل الضعيف لا يساوى بكائها وهى تذهب بعيدة عنه فالمكان بعيد عن المدينة ولا يمكنه أن يراها إلا لماما . رفض عرقى هذا الحل تماما . فلهذه الإحساس أن ترك أمه لرعاية غريباء سوف يجعلها تنساه وستضيع ذكرياتها فى حنايا ذاكرتها المريضة ، اختنق قلبه ، إنها الطريقة الوحيدة لإنقاذها من هذا العالم البشع . لكنها الشعاع الذى يلمع بالسعادة منذ طفولته . راح يحبس الدموع التى تفرقت فى عينيه . وأعاد نظارته . وعندما تأهل للقراءة ، لاحظ أن الضوء قد انخفض أكثر . وأنه لم يعد يرى شيئا .

أربكه ظهور هيكل فى الفصل مثل ظهور عدو خارج من الظلمات كى يكسر جليده الداخلى ، كان هيكل آخر رجل يرغب رؤيته فى هذه اللحظة . لأن تكتم وسأوسه وحالته المزاجية وضعفه سوف يضطره أن يتصرف بطريقة غير متوقعة مع المتاعب التى يثيرها . إنه فى حاجة للهدوء والوحدة . راح يسيطر على شعور التمرد الذى يتولد فيه ضد تطفله . ونزل من قمطره لمقابلته وهو يقول :

— أهلا وسهلا .

رد هيكل : أهلا . اعتذر لإزعاجك . لكن كان يجب أن أراك .

ارتبك عرقى وهو يقول : أنت لاتزعجنى قط . أنا أقرأ . لكننى لاحظت أن

المكان مظلم جدا . انتظر ، سأبحث عن مصباح .

اعترض هيك . لا لا ، إنه أفضل هكذا ، لسنا فى حاجة لمصباح .

لم يلح عرفى ، لأن رغبة ضيفه قد تقابلت معه فى البقاء فى الظلام ، فهو يخشى أنه تحت نظرة هيكل الحادة يمكن أن يكشف معاناته . إنه لا يريد أن يتكلم عن أمه . ولا عن المُنزق المرعب الذى يرتطم به . إنه أمر يخصه . أمر يتعلق بمصيره . ارتبك أن الله يزيد على أيدي زنديقه ، أدرك أنه لن يهرب بعيدا . عندما شم رائحة الياسمين تفوح من الشاب . إنه يعرف أساليب هيك . فلعله سيخرج الباقة الموجودة فى داخل سترته ، ستخرج فى اللحظة المناسبة ليقدمها لأمه التى ينوى أن يزورها فى حجرتها . هذا اللقاء بين هيك وأمه يثير عرفى فى جانبه الغريب ، المثير للهذيان . فهذا يتجاوز قدرته على المقاومة العصبية . تأوه . قال وهو يشير إلى أحد المقاعد لهيكل . ثم وهو يجلس أمامه فى الناحية الأخرى من المقاعد : أجلس ، أتمنى ألا يكون أمر مزعج قد جاء بك .

– بل على العكس . يمكنك أن تفرح يا أخى عرفى ، فالمحافظ ، سيتغير .

– هل تُشر هذا فى الصحف ؟

– الصحف لم تعرف بعد . الخبر جاء نى من مصدر أكيد ، وعليك أن تصدق .

– ماذا حدث ؟

– الأمر بسيط . مثلما فهمت . فالوزير طلب الاستقالة من المحافظ وسوف نتخلص منه خلال أسبوع .

لم تكن لدى عرفى أية رغبة فى الفرح . فماذا يهمه من تغيير المحافظ . لم يجد شيئا يقوله يعبر به عن فرحته ولا عن رضاه . فكل شيء فى داخله ساكن قائم على نفس المعاناة . ومع ذلك عليه ألا يخيب أمل هيك بصمت طويل . هتف بصوت امتزج بالمرارة رغما عنه :

– هذا يرضى رغبتك؟ أليس كذلك ؟

بدا له الآخر لم يسمعه، لأن الرد لم يصل إلى هذا الوجه الساكن الذي يتلاشى بببطء . تغشاه الظلمة . وراح يميز أكثر فأكثر ملامح هيكل . وهو الغارق في متاعب جمّة . انتابته فكرة أن يسمعه يتفجر في الضحك فجأة . أبلغه حدسه أن هيكل ليس في حالة عادية . مر بداخله شيء ما غير محدد ، وشديد القلق . استند عرقى على المقاعد ، وأرشف أذنه وكأنه يستعد لسماع رسالة هامة، رد هيكل .

— بكلمة واحدة . نعم .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى يا عزيزى عرقى . أن المستقبل يخبىء لنا مفاجآت . ويجب ألا ننسى أن هناك محافظين تافهين . إيمانهم بالطغيان الماسخ يقدم لنا مادة شهية . قال عرقى وقد تحير قليلا من التفسير الغريب لهيكل : أكيد . اعتقد أننا يجب أن نمثل للفرصة المهيأة لنا . أمامنا مساحة زمنية واسعة في هذا المجال . وليس لدينا ما نخشاه .

— أنا لا أخشى . ولكن لدى الإحساس أن المحافظ القادم سيصاب بمثل قاتل . ربما سيتصرف كأنه قد نسى غباءات سابقة . أو كرجل يريد أن تكون له قيمة ، وهنا علينا أن ننفى أنفسنا .

بذل عرقى مجهودا خارقا كي يهتم بقلق هيكل حول موضوع المحافظ الجديد . إنه الآن يتساءل هل يضمن هيكل قلقه . وعن أى منفى يريد أن يتكلم ؟ ولماذا يشملته فى رغبته للرحيل نحو بقعة أخرى أكثر خصوبة فى العبث . إن عرقى ليس فى حاجة للذهاب للبحث عن الخسة والندالة . فهى مزدهرة فى هذه الأرض وتنتشر أسبابها فى كل مكان . يمكنه أن يبتهج فى منزله . حلق فى وجه صديقه المثلف ، وحاول أن يدرك هذه الغيرة الخارجة عن المؤلف . لم ير سوى الابتسامة الخفيفة التى تبدو كأنها تسبح فى الظلام الذى اشتدت كثافته، أحس أنه مادة لسخرية هذا الرجل الذى لا يعرف الرحمة .

تلاشت الابتسامة فجأة . وسمع هيكل يسأله :

— كيف حال أمك ؟ لم أرها منذ فترة طويلة .

- إنها دائما فى نفس الحال .

- ألا تتمنى لها أن تتحسن ؟

أثار السؤال عرقى ومدد بقوة روحية، إنه واثق أن هيكى لم يسأله إلا ليتأكد منه . فهيكى يود أن تستقر كافة التغيرات المتعلقة بصحة المرأة العجوز . احتفظ بأمله أن يراها دائما فى نفس الحال ، مصابة بجنونها الخاص .

أستبدت بعرقى رغبة أن يوقعه فى فخ . لعله يكشف بأسبب هذا الاهتمام الزائد عن الحد ، قال : نصحونى أن أرسلها إلى مصحة ، لكنلى متردد .
- أفهم سبب ترددك .

- ولكن، ربما سأنتهى إلى حل .

صاح هيكى بحماس يدركه عرقى فى أية لحظة : لاتفعل هذا قط . لاتفترقا أبدا يا أخى عرقى . ماذا يمكن أن تنتظر من هؤلاء الناس ؟ أنت هكذا كأنك تسلمها لجلاد .

- إنها فى حاجة للرعاية ولا أستطيع أن أدبرها لك . وهم يستخدمون فى هذه المصحة أساليب علاج جديدة . قيل لى إن هناك أمل فى الشفاء .

- أنت طفل . لو كانوا قادرين أن يعيدوا لها عقلها، فلماذا لايطبقون أساليبهم على كل البشر . لا . لايمكن أية قوة إن تنزع الإنسان من شره . لاتجعلها هدفا لتجاربهم القدرة . فسوف تتعذب .

- ألا تعتقد أنها تتعذب ؟

- إذا أردت أن تعرف ، فهى ليست لديها أية فكرة عن المعاناة ، نحن فقط الذين نراها تتعذب .

- كيف . أنت ، يا هيكى . هل تتعذب ؟

مد هيكى يده، ولمس ذراع الناظر بشىء من التوسل :

- لاتتركها لهؤلاء الأوغاد . فهذا عمل وحشى .

سكت وأدار رأسه ، كيف يمكنه أن يتركها فى ضعفها . مرت لحظة من

الآلم ، والخوف ألا يرى العجوز المجنونة ، وأن يفقدها للأبد . ندم على كلماته ، ومشاعره التى أبداها . كيف سيفكر عرفى فيه ؟ تكهن الناظر الذى بوغت ، وهو ينتظر . بينما راحت نظرتة تحوم فى الظلام الكثيف الذى يسيطر الآن على الفصل . لم يميز سوى الحروف الهجائية المكتوبة بالطباشير فوق السبورة ، تبو أشبه بحروف هيرغليفية لامعة . وببطء ، وكأنه يمثل لحدسه الباطنى . قام واخترق صف المقاعد وصعد المنصة ثم جلس على قمطر الناظر البعيد ، وفى أسفله رأى عرفى ، مهموما ، مكتوما ، يلفه الظلام . بدا له أن آلاف السنين قد مرت منذ أن باح له بسرّه . وأنه يمكن الآن أن ينظر للأمام بعد أن فهم .

تخففت الدهشة التى استبدت بعرفى قليلا واستعاد ثقته فى نفسه . وأراد أن يصرخ فى هيكل معبرا عن فرحته لأنه قريب منه فى بأسه ، ذلك الآلم الشديد الذى قتل فيه شيئا ما للأبد . يعرف أن «هيكل» متأهب للخطر الذى يمزق روحه . ابتعد عنه والتصق بالحائط فى كبرياء . فماذا فعل وهو جالس فوق القمطر، مخلوق ضائع وحيد فوق صخرة ؟ لماذا لا يقترب منه . يمد له يده فى عناق أخوى حاول أن يتكلم، لكن الكلمات انحشرت فى حلقه ، وسمع صوت هيكل يدوى فى الصمت:

— هل يمكن أن أراها ؟

قال عرفى : ستكون سعيدة . تعال .

لحق به هيكل . خرج الاثنان من الفصل ، وسلكا الممر الذى يؤدى إلى غرفة العجوز المجنونة .

كان باب الغرفة مفتوحا . ينساب منها ضوء خافت . توقف عرفى عند العتبة ، قلعا ألا يكتشف أمه . لم يرها فى أى مكان بالغرفة . إنها نوع من الزنزانة ذات نافذة مسبودة بألواح الخشب . من أجل وقاية المجنونة من نظرات الجيران المختلسة . تضم سريراً حديدياً صغيراً ، وكومودينو وأريكة مغطاة بقماش من الجوت . وفوق الأرض قطعة من الحصير . ومصباح غاز فوق الكومودينو ، يشع ضوءه . هتف عرفى :

- أماء ؟

لم يسمع ردا ، ولكن عرفى أحس بشيء ما يتحرك فى الركن ، بين السرير والحائط ، اقترب يتبعه هيك . كانت العجوز المجنونة جالسة القرقصاء ، انهمكت فى ترقيع خيشة موضوعة فوق ركبتيها ، لم تبد أية بادرة دهشة لوجودهما ، لكن عينيها لمعتا لرؤية هيك ، ثم راحت تحرك وجهها ، وقالت :

- انتظرك يا أمير ، بالأمس حلمت بك ، فوق حصانك الأبيض تصرع التنين المرعب ، ولكن التنين كان يولد من جديد بعد كل ضربة ولايموت أبدا ، ولكنك ، يا أمير ، كنت تضحك و تضحك ... وأعرف لماذا كنت تضحك ، فانت لم تود قتل التنين ، لأنه يسليك ولاتبغى موته .

قال عرفى : أماء ، قومى ، واستريحى على سريرك .

لم تتحرك ، وقف هيك أمامها ومد لها يده ليساعدها على الوقوف ، طبقت يدها وأبدت احتجاجا كفتاة رشيقة مليئة بالكبرياء ، بدت نحافتها الشديدة تحت ثوبها القطنى وجعلها خفيفة كالريشة ، ثم راحت ترتب الخيوط البيضاء فى شعرها وهى تدندن ، تمددت فوق السرير ، وفى نبول كأنها محظية تنتظر عشاقها وتعرض عليهم اغراءها الساذج .

هنا سحب هيك باقة الياسمين من جيبه الداخلى وقدمه لها ، ابتهجت ورفعتها إلى أنفها ، تنسمت عطر الزهور كامرأة اعتادت هذا النوع من السلوك قالت مدندنة .

- يا أمير ، أنت تخرجنى كثيرا ، أنت تدمر نفسك من أجل امرأة عجوز مثلى .

رد هيك : ليس هذا سوى شيء صغير ، قياسا للسعادة التى تهبيننى إياها .

- سعادة ، أنا ؟ يا أمير ، أنت تسخر من شيخوختى ؟

- تعرفين إننى لا أجزؤ قط .

- ومع ذلك أعرف أنك رجل ساخر .

- ربما بعيدا عنك . لكن هنا قلبي مفعم بالحزن .

- قلبك كبير يا أمير . إنه في حاجة إلى غابات شاسعة . ماذا يمكنك أن تجد في هذا الكوخ الفقير . لكن في الخارج هناك روائح ؟ لماذا تضيق وقتك هنا ؟
وحركة باقة الياسمين كأنها مروحة . أحسست أن عطرها يفوح في الغرفة
قرفص هيكل عند طرف السرير . بدا كأنه تجاهل وجود عرقي نظر إلى العجوز
المجنون ببهجة بادية ، وقال :

- لا يوجد شيء في الخارج يمكنك أن تندمى عليه . صدقيني .

أغلقت عينيها ثم غرقت في تأمل شديد . ألقت رأسها على الوسادة ،
وضمت باقة الياسمين بقوة على خياشيمها ، وكأنها تتنفس منها عطر العالم
الخارجي ، عالم الأحياء الذي حاولت أن تتذكره .

راح عرقي يقاوم أحاسيسه وهو واقف خلف هيكل . فوق كتفي الشاب رأى
أمه ممتدة فوق السرير كالموتى . لم يجرؤ أن يتدخل فيما بدا له هبة من السماء .
لقد حقق هيكل معجزة حين أدار مثل هذا الحديث مع أمه ؟ إنه يكلمها بطريقة
طبيعية ، وكأنه يتكلم إلى كائن عاقل . والعجوز ترد بنفس النغمة وكأن مخها
المضروب قد بدأ في العمل بشكل طبيعي . هنا تساطل عرقي عما إذا كانت أمه
مجنونة حقيقة أو أنها تمثل مسرحية ، سرعان ما ألغى فكرته هذه . فالمهم بالنسبة
له الآن ، هو أن تخرج أمه من ليها وتعود إلى نبلها وبهجتها .

فتحت العجوز عينيها ، واخفضت باقة الياسمين . وسألت وفي صوتها نبرة

قلق :

- كيف حال البشر الآن يا أمير ؟ أذكر أنهم كانوا أشرار .

بدت وكأنها تستعلم عن بلد غريب زارته في شبابه ، ولم تعد إليه قط ، رد

هيكل :

- إنهم هكذا دائما . ولكن غباهم لا يزال ممتعا .

- أنت لاتحمل أحقاد في قلبك . شاهدتك في حلمي تلك الليلة . لم أر أي
بأسرة سوء نية في عينيك وأنت تحارب التثنية ، مع ذلك أراد أن يتخلص منك يا أمير

فانتبه إلى نفسك .

- إن أجعله يتخلص منى . فلست ممن يتم التخلص منهم . سادافع عن
نفسى بلا هوادة . لانتلقى على .

طبقت يديها ، ووضعتهما على شففتيها كأنها عاشقة متيمة ترى حبيبها
يرحل إلى حرب شرسة .

- أجل . دافع عن نفسك . وعد لى منتصرا .

تأملها هيكल متأثرا ، متوغلا بكل وجوده فيما وراء هذا الوجه النحيل
الرقيق ، الخالى من تجاعيد الشيخوخة . لم ير وجها يمثل هذا الصفاء . وهذه
المساحة الخاوية من أى دناءة حتى وجه الطفلة الصغيرة فى صالة الشاي . بدا له
الآن مطبوعا بعلامات فاحشة ، حيث امتزجت نظراتها بالخداح والترقب كأنها
تقوم باغراء خصم غادر . مستخدمة سلاح الأنوثة . لاشئ يقارن بالسلام فى تلك
اللحظة . إنه شخص مخلص من كافة تملقات البشر الثقيلة . لايمكنه أن يحس
بالسلام مع هذا العالم إلا أمام هذه المجنونة التى تست متاعب الغرور . وأصبحت
بالنسبة له مجرد مخلوق آدمى بلا مرارة ولا طموحات .

لاحظ أن المرأة العجوز تنظر له بسعادة . وكأنها ترتاب فى السلام الرائع
الذى يسكنها :

- نحن متفاهمان . أليس كذلك يا أمير ؟

قال هيكل : طبعاً . ولكن يجب ألا تخبرى أحد بسرنا .

هنا تركت السرير ، ثم بدأت فى القفز والنوران فى المساحة الضيقة بين
السرير والكمودينو . راح طرف فستانها يتسع حول جسدها الضامر . وظهر
ساقاها العجافوان المليئتان ببقع سمراء ، راحت تعيد ترتيل اغنية كنيية . لكنها
ملينة بالخصوية والشباب ، بصوت فتاة مبهجة تلعب فى حديقة طفولتها .

لم يبد هيكل أى حركة كى يوقف من رقصها المفاجئ . أحس بالسعادة
وهو ينظر اليها برقة ، وكئن المنظر يشكل جمالا فريدا لشيء غير مألوف .

شحب عرقى ، واللحظة قصيرة ، ود أن يوقفها ، وأن يفسد هذه الرقصة

المرتعشة التى تعيد أمه إلى جنونها ، ولكن شيئاً ما إعتمل فيه إزاء موقف هيكى .
فهم فجأة إن إعتياد الجنون لايسبب أى رعب . فمن السهل أن يعيش مع أمه
أفضل من أى شخص عاقل . فالجنون لا يضيف شيئاً . بدت له الفكرة كأنها
خلاص . فراح يبتسم لأمه .

توقفت المرأة فجأة عن دورائها وعادت لتستريح فى سريرها ، لاهثة . وقد
تجمدت ملامح وجهها من المتعة . قالت موجهة كلامها لابنها .

— يا صغير . اشترى لى رداءً جديداً . فردائى قديم . وأريد أن أكون جاهزة
فى المرة القادمة عندما يأتى الأمير لزيارتى . إنه يقدم لى الزهور . وأنا استقبله
كشحاذاة . يجب أن يرانى جميلة .

فتشت عن باقة الياسمين ، قبضت عليها بيديها . ثم سقطت رأسها على
الوسادة وبدأت كأنها تغرق فى نوم فاتر .

تأملها الرجلان لحظة ، ثم خرجا فى صمت من الحجرة .

لم يجرؤ عرفى أن يقول شيئاً . فهو لم يشعر بمثل هذه السعادة من قبل
وبدا له أن عبثاً ثقيلاً قد نزل من فوق كتفيه . فأصبح حراً طليقاً . ولم يعد مقوس
الظهر . رفع رأسه كى ينظر إلى هيكى الذى بلغ باب الشارع .

ضمما أيديهما قبل أن يفترقا عند باب «البديروم» وفى الشارع الخالى
الضعيف الإضاءة قال هيكى :

— أنت تملك بضاعة ثمينة . لاتركها قط للأوغاد .

رد عرفى : لاأقلق ، الآن فهمت . واعذرنى يا أخى هيكى اننى ظلمت لا
أفهم وقتاً طويلاً .

وأبتعد هيكى . ثم استدار بعد خطوات ورأى عرفى واقفاً عند مدخل
«البديروم» ، راح يحييه بإشارة أخيرة من يده . تحية مليئة بالمودة والشموخ .
وكأنه سلطان راحل إلى منفاه . بعيداً عن أملاكه الغالية .

(١٢)

لم تكن سوى سحابة عابرة فوق المدينة ، اختفت الشمس تماما وكأن عاصفة ما قد هبت. صنعت الطائرة الورقية بقعة صفراء فى أعماق السماء الداكنة تتأرجح وتدفعها زوابع الرياح التى تهب من البحر . راح ذيلها الطويل يتمايل ويتراقص ككعبان يخرج من بطن السحب ، مشدوه بالفراغ . أمسك كريم الخيط بيد ثابتة ، وراح يتحرك فوق السطح من ركن لآخر . محركا الطائرة الورقية ، وهى ترتفع أكثر فأكثر . إنها جديدة . كبيرة الحجم ويجربها بكل متعة ووحشية . صنعها من أجل «قمر» العاهرة الصغيرة ، التى عادت البارحة . التقاها وهو عائد لمنزله ، جالسة تنتظره على السلم . اعتذرت لأنها أزعجته ، ولكن كريم رفعها بين ذراعيه وحملها إلى حجرتة . ومارس الحب معها طيلة الليل . وعندما استيقظ نون أن يقدم لها شيئا . ترى ماذا ؟ ليس معه مال أو شئ ثمين يمكن أن يعبر به عن مشاعره المجانية التى يحسها نحوها . فكر فى صناعة طائرة ورقية . طائرة ورقية لا يبيعها . إنها عمل فنى راق . اختار أنواته بعناية . وكأنه سوف يبني قصرا لامرأة أحلامه .

الآن ، ينتظر أن تبلغ الطائرة هدفها ، هاهى ثابتة فى السماء ، نادى الفتاة التى جاءت تتأملها . بدا فخورا بهذا النجاح الطيب الذى حققه بالطائرة ، فالفتاة سوف تعجب بعمله . أليست هذه الهدية رائعة كى يقدمها لها ؟ طائرة جميلة تطير أثناء العواصف الشديدة فى السماء وكأنها عاشقة تتأوه ؟ ابتسم خفيفا لشاعريته . وراح يوجه الطائرة الثقيلة بحذر عبر مطبات الهواء خاشيا أن يصيبها ضرر . فعند أقل بادرة من عدم تركيزه يمكن لهديته الجميلة ان تتحول

إلى قطع . أحس اللحظة عابرة بضيق . ثم تنفس الصعداء . لقد وصل إلى هدفه ، وهامى الطائرة الورقية متوازنة فى أعلى السماء . وحيدة . أحس بها كريم تهتز فى طرف الخيط . توقف ، وهو يلهث ، وقد امتلأ جذعه العارى بالعرق . واستند على جدار السطح للحظة طويلة ، وهو يتأمل صنيعته بكبرياء شديد .

— الحمد لله . أرى أنك تتسلى جيدا .

ارتبك كريم ، تأرجحت الطائرة بعيدا فى خفة ، يجب أن يسحبها على الخيط ليوجهها . عرف صوته نون أن يبعد عينيه من فوق الطائرة الورقية ، صاح .

— أهلا ، طاهر . صدقنى . أنا لا أتسلى . أنا أعمل .

تقدم طاهر نحو السطح ، وهو يرتدى بدلته الضيقة ، وياقته القصيرة ورباطة عنقه . لم يكن هذه المرة حافيا . بل يرتدى حذاء بذل جديد ضخم . صنع كى يعيش طويلا . أحدث ضجة ملحوظة فوق البلاط الذى يغطى أرض السطح . بدت هذه الضجة كأنها تعجب طاهر . لأنه فى كل خطوة يئن فى كرامته . اقترب من كريم . ووضع يده على كتفه العارى ، وقال :

— أنا سعيد ان أراك فى كدك اليومى . فلديك سطح رائع . كما أعرف . اسمع ، يجب أن أعتذر عن تلك الأمسية . لقد تفهم صديقك هيك موقفى . ولكننى يجب ان اتكلم اليك .

قال كريم: لا أريد شيئا .

لم ينظر الى طاهر . بل استمر فى تأمل الطائرة بعينه . الآن ابتعدت السحابة الكبيرة . وظهرت الشمس ، ساطعة مثلما شحبت أثناء هذا الغياب الطويل . راحت أشعتها تنعكس على هيكل الطائرة الورقية الصفراء ، التى تبعد فى زرقة السماء وكأنها انغمست فى الذهب . أحس كريم بالمتعة لكل هذا الذهب الذى يصبغ أطراف الخيط . ولكن متعته افسدتها أشياء أكثر واقعية . فحضور طاهر إلى سطحه لم يكن على هواه بالمرّة . بل على العكس بدا مرعبا . فقد وضعه طاهر فى موقف صعب . أيضا فإن وجود شخص ثورى عنده يمكن ان يسبب له مشاكل لا حصر لها . لأنه يعرف أن الشرطة يجب أن تستجوبه عن زميله القديم .

وأذا عرفت ، لسوء الحظ ، ثباً هذه الزيارة ، فلن يفوتهم أن يسببوا له المتاعب .
منها أنهم سيمنعونه من الإقامة فى هذا السطح . سوف يضطرونه أن يغادره ،
وهذا أمر متوقع بلا أدنى شك . ولكن ماذا يفعل ؟ لا يمكنه أبداً أن يسد بابَه أمام
طاهر . فهذا لا يتناسب قط مع طبيعته . فهو لديه أعلى قدر من حسن الضيافة ،
ومهما حدث فهو يعرف أنه يطرد زميلاً قديماً من بيته إلى الأبد .

بدأ طاهر غاضباً من الطريقة التى استقبله بها . اعتقد أن كريم مشغول
بطائرته الورقية عنه . قال له :

— أترك هذه الطائرة . وانظر الىّ .

قال كريم وهو لا يزال يرفع عينيه الى السماء : لقد استغرقت ساعة كى
أطيرها عالياً . ألا تجد هذا جميلاً ؟

— لا أنوى أن أتسلى بطائرة ورقية . ماذا تتصورنى ؟ هيا . كف عن اللعب
يجب أن أكلمك فى أشياء جادة .

انتبه كريم : ماذا أفعل بالله عليك ؟ هناك آلاف الرجال فى هذه المدينة
ويجب عليك أن تأتى الىّ لتكلمنى فى أشياء جادة . ألا يمكنك أن تتسلى قليلاً
انظر الى هذه الطائرة الورقية . إنها تحفة .

قال طاهر بصوت غامض : لقد جئت اليك لأنك تسكن هذا السطح .

— هذا السطح . هل تود شراؤه ؟

— لا تقل مثل هذه الغباءات . أريد أن أكون هنا بين الساعة التاسعة
والعاشرة . سيكون سهلاً عليك أن تؤدى كل هذه الخدمة ؟

— ماذا ستفعل . هل ستستقبل فتاة ؟ ساكون سعيداً أن أعيرك حجرتى .

سكت طاهر . رفع رأسه ونظر الى الطائرة الورقية الساكنة فى السماء .
يجب عليه أن يجرب كافة أشكال الصبر كى ينجح فى لفت انتباه كريم . أما
بالنسبة لإقناعه بمشروعه . فإن هذا أمر بالغ التعقيد . هذا الغبى يتصرف
كمهندس لأنه يطير طائرة ورقية . لا علاج لمثل هذا التدنى . اعتقد طاهر أنه يواجه

أشد ما يكرهه وهو الدخول مباشرة فى الموضوع. كيف يبلغه ؟ كيف يدخل فى الأمر طالما أنه ينكر مسألة الكرامة والشرف ؟ هذه الكنوز الروحية التى يحتفظ بها الشحاذون المساكين فى أثوابهم الرثة . إنه يبدو كطفل مشدود خلف طائرته . بينما الشعب يعانى ، ويغرق المدينة فى قاذوراتها . ود طاهر أن يبكى . وأن يصرخ ويضربه . لكنه كظم غيظه لأنه يمثل هذا الشعب ، واجبه يتطلب السكوت مؤقتا وابتلاع مرارته . وألا يفكر سوى فى هدف محدد . قال بلهجة ناعمة وبودة كئنه يأمل أن يصحبه كريم إلى حفل :

— هل تعرف أن هناك احتفالا كبيرا هذا المساء فى الكازينو .

— لا . بشرفى . فلست اجتماعيا مثلما تعتقد .

— الأمر لايتعلق بالاجتماعيات . فأتنا اتجنبها . وأنت تعرف أن المحافظ سيذهب . فهو راعى الحفل .

سأل كريم ، وقد أصابه القلق فجأة من اسم المحافظ :

— وماذا ؟

— سيمر بسيارته ، ومعه موكبه من الدراجات البخارية ، على طريق الكورنيش . إنها الوسيلة الوحيدة الممكنة . لقد درست الموقف .

— ماذا تقصد بالضبط ؟ أنا لا أفهم شيئا قط .

أخذ طاهر وقته قبل أن يرد . نظر الى وجه كريم الرقيق . وقد شدد يديه على خيط الطائرة الورقية . ثم رمى كلامه :

— حسنا ، الأمر بسيط . ساكون هنا ومعى قنبلة ، سألقياها على سيارته ، فهذا أحسن مكان .

صاح كريم وهو يرمق طاهر بعينيه الخائفتين : نحن هنا ، أشك أن هناك قنبلة فى أى مكان .

تمايلت الطائرة الورقية على هواها . ثم انحرفت بشكل مرعب ، وسقطت على مسافة أمتار . كطائرة ضائعة . جرى كريم فوق السطح دون أن يثير قلق

طاهر، متناسيا الموضوع الهام الذى حدثه عنه، لم يفكر سوى فى إنقاذ طائرته الورقية من الكارثة . ثم ثارت أحاسيسه، وبكل سرعة، حاول أن يعيد الطائرة الورقية الى توازنها، ثم أمسكها فى وسط السطح، وأحس بفخر لأنه استطاع أن يسيطر عليها بفضل خبرته فى السباحة الجوية. صاح طاهر:

— براغو. لقد أمسكتها بأعجوبة، أعترف أنك ادهشتنى.

كان المديح المنطلق من طاهر ممزوجا بسلوك دبلوماسى ثقيل، أحس فيه كريم بالغثيان، رد دون أن يلتفت اليه:

— يا عزيزى طاهر، اعرف اننى لا أشاركك قط فى أعمال العنف وسطح بيتى ليس سلخانة.

قال طاهر وهو يقترب منه: لايمكنك أن ترفضنى، لأننى لست الوحيد الذى ترفضه. لكن كل زملائنا، لأنك تعرف جيدا أنهم طربونى.

ابتسم كريم فى داخله، وبردائه الضيق وياقته القصيرة الجامدة ورابطة عنقه. بدا طاهر أشبه بشخص متواضع أراد أن يجعله يعرف أن وراءه مؤسسة، شعبا ربما، مستخدما فمه، محاولا أن يمتلكه بالكلمات، هل يعامله كشخص غيبى؟ انتابت كريم شفقة من سذاجته. إنه واثق أن كريم لن يتكلم لأحد عن مشروعه، فهو كتوم. كما أن وسواسه يجعله يؤمن بمناهضة الظلم والقهر، انه يغلى فى داخله بما يحمله من آراء حول المعاناة الانسانية، انه مستعد أن يرتكب جريمة عنيفة قد تقوده الى المشنقة حتما، راح يتصرف كرجل ضيرير يمشى نحو هاوية، فالامر بالنسبة له غريزة مصيرية، فوق جبينه أنه منذ ميلاده، ويجب أن ينجزه، أنه بلا شك لايعرف أن المحافظ سيتترك منصبه. وهو بذلك سيقتل رجلا مات معنوياً.

قال كريم:

— اسمعنى جيدا، فالمحافظ فقد وظيفته، لم يبق أمامه سوى ساعات، فالوزير طلب منه الاستقالة، وقريبا لن يكون سوى ذكرى، أعرف هذا من مصدر موثوق.

قال طاهر بكل ازدراء: لا تحاول أن تحكى لى قصصا، فعصائدك ساخرة هل تريد أن تجعلنى أصدق أن اعلاناتكم قد اقبلته؟

— نعم، إعلاناتنا. أعرف أنه من الصعب عليك أن تصدق، لكننى أقسم لك،

فلتدخل عن مشروعك.

— أبدا، لقد قررنا أن نضربه ضربة قاضية. سيموت الطاغية. وقد قلت هذا. وسوف تساعدنا.

مالم يقله لكريم أنه يدبر هذا الاغتيال كي يغسل العار ليكافئ دعايات ونزوات هيكل. هذا الصفيق محطم الثورة. سوف تشك فيه الشرطة على أنه مدبر هذه المذبحة، مثل السم الذي يسرى في الدم. فإنه لم يتحمل أن يستكمل نضاله مادام الاتهام الظالم يقلب أفكاره، فعليه أن يكشف للسلطة أنه لم يتدخل عن أساليبه، وأن يبلغهم أنه من الممكن الاعتماد عليه. فلا يتركونه ينام في هدوء، ود أن يهزم بحدث بشع يجعلهم يفهمون أن كل هذه الإعلانات وكل هذه القصص بشأن إقامة تمثال للمحافظ، لا تتفق مع مفاهيمه في قلب السلطة. ويعد هذا الاغتيال سيضطرون إلى معالجة أخطائهم، إنها المحاولة الوحيدة التي أمامه كي ينفذ شرف حزبه في مواجهة الحكومة، فظاهر لايميل للأساليب الأقل دموية، قال كريم الذي بدا في استعادة طائرته الورقية وهو يسحب الخيط، ويلفه حول قبضته:

— من الأفضل الاعتماد على، فأنا لن أوافق قط أن أمشي على دريك.

هتف طاهر غاضبا: هذه ليست حيلة، بل بسبب الشعب الذي أصبح لعبة، ألا تحب هذا الشعب؟

هتف كريم غاضبا: أنا لا أحب أمي. لماذا تريدني أن أحب الشعب؟

— أنت تتكلم كوغد، قل إنك خائف.

— بالتأكيد أنا خائف، ماذا تعتقد؟ فأنا أحب الحياة.

أشار طاهر وهو يلوح بإصبعه إلى الطائرة الورقية: هل هذا ماتسميه حياة؟

قال كريم مبتسما: انها تبدو لك غريبة. أما بالنسبة لي، فطيران طائرة ورقية يكفي أن يجعلني سعيدا، حكومتك لاتهمني إلا بقدر ما تسليني، ولايهمني موتها، فأنا مرعوب من البكاء.

وأكمل دوران الخيط حول قبضته، انخفضت الطائرة شيئا فشيئا. راح طاهر ينظر إليه ببرود وأحس بأنه مقهور، أثارت وقاحة كريم، لكنه استطاع أن

يسيطر على سخطه، لم ير سوى مهمته المرعبة، فاغتيال المحافظ أصبح بالنسبة له مسألة حياة أو موت، لم يتراجع أمام أى عقبات، أو توضحية، عليه كى يصل إلى هذا الهدف السامى أن يلج ويصر، فهذا نوره كمناضل، ورغم أنه يعتبر كريم خائناً وجاحداً، فإنه مستعد أن ينحنى أمامه ويرجوه أن يوافق على فكرته، لكن كريم لم يعره اهتماماً، انتزعه من قلبه تماماً، فهو ليس سوى آلة يصفى بها حساباته مع المحافظ.

وصلت الطائرة الورقية إليهما كطائر ضخم جريح بدا شامخاً وسط الشمس، وضعها كريم أرضاً برقة، ثم راح يجمعها ويضعها فى ركن من الشرفة. وأثناء ذلك بدا طاهر فريسة لسراب راح يشده للأغوار، ويدخله فى فراغ قوته المنفخة، تأمل صامتاً، مبهوتا وغاضباً، الفتاة الواقفة عند باب غرفة كريم. إنها «قمر» العاهرة الصغيرة الذى جاءت تلحق بحبيبها، والتى رأت غريباً فوق السطح. تماسك، مندهشاً رغماً عنه، قد أخذت حماماً ويبدو مظهرها منتعشا ولطيفاً، يبدو جسدها الغض واضحاً تحت رداؤها الشفاف مما أثاره بشكل غريب. ادار طاهر عينيه بتأذ، وكأن هذا الظهور يمثل بالنسبة له صورة فاجرة فاسقة. تمتم وهو يوجه كلامه لزميله:

— انت الآن تعيش مع امرأة.

قال كريم: انها عشيقتي. تعال أقدمها لك.

— أنا لا أهتم. ولكن، لعلها سمعت حديثنا.

— لا تهتم. فلن نتخلص منك، إنها ضحية المحافظ، فجنوده يمنعونها من

التجول

قال طاهر: يا للجنة على مثل هذه الضحية، إنها لاتمثل أية أهمية، ليست سوى إفراز لنظام اجتماعى يقهرنا.

صاح كريم: كيف، هل تعتبرها هكذا، أجمل إفراز فى العالم، أشعر بالسعادة التامة مع هذا النوع من الإفرازات.

قبل لحظة أحس طاهر أن هناك أملاً ضعيفاً لإقناع كريم، ولكن بعد أن رأى هذه الفتاة ذات المظهر الوحشى، فهم أنه من غير المجدى أن ينتظر شيئاً من

رجل يعيش فى فحشاء وفجور. لقد وقع كريم تحت سطوة لحم هذه الفتاة. وأصبح عبدا للجنس، ظل يسبح فى ماخور النظام، ولا يمكنه قط أن يخدم أهدافه كرجل ثورى. قال:

— سأذهب. ولكن إن أضيع وقتى، لقد علمتتى أمى إلى أى حد يمكن للإنسان أن يكون حقيرا.

قال كريم: انتظر، سوف أعد لك قهوة، ألا تريد أن تتناول فنجان قهوة؟ تذكر أنه قد خيب أمل كل الأنظمة المدنية عندما لم يقدم شيئا لطاهر. فأحس بخجل شديد.

لم يستدر طاهر ليعلن موافقته أو قبول دعوته. فقد راحت أصوات قبقابه تدق السلم لفترة، ثم اختفت للأبد.

عبرت «قمر» السطح، وأقتربت من عشيقها:

— من هذا الرجل؟ إنه يخيفنى.

رد كريم: انه صانع قنابل.

اندهمت الفتاة: قنابل، يانهار أسود.

— بالعكس، انه نهار رائع.

ثم أمسك كتفها وضمها اليه. وأعادها إلى الحجرة. لكن حكاية الاغتيال هذه لم تعطه أى رغبة فى ممارسة الحب.

وفى ظهيرة اليوم التالى، وبينما هو يفتح الجريدة التى أحضرها له خادمه علم هيكىل نبأ اغتيال المحافظ. وفى الصفحة الأولى من الجريدة صورة تمثل عربة المحافظ محطمة من انفجار قنبلة، وصورة طاهر. دامى الوجه متورما. وقد كُبلت يداه فى قيود ممتدة أمامه بطريقة تنم عن الاعتزاز. ملأت تفاصيل الاغتيال صفحات عديدة. لم يذهب هيكىل بعيدا. فرك الجريدة وألقاها أرضا، فقد بُوغت برعب هذا العنف المجانى. فالمحافظ الذى كاد يختفى تماما من الحياة، قد أصبح شهيدا على يدى طاهر، وأصبح الجلاء ضحية، ونموذجا حيا للوطنية والقداء لأجيال المستقبل وسط المخادعين الخالدين.

رقم الايداع ٧٩٠٩ / ١٩٩٣

I. S. B. N

977 - 07 - 0282 - 8

هذه الرواية

حضلت هذه الرواية على جائزة
الأكاديمية الفرنسية قبل عامين .

حدث ذلك كمحاولة لإعادة اكتشاف أهم
روائي يكتب أدبا أجنبيا باللغة الفرنسية
واعتبر أن البير قصيرى هو الكاتب الأكثر
أهمية فيمن يكتبون بهذه اللغة بعد سيدار
سنجور .

ورواية «العنف والسخرية» هي أهم
روايات الكاتب على الإطلاق . وذلك حسبما
كتب قصيرى فى خطابه الى روايات الهلال
«إنه لمن أسباب السعادة بالنسبة لى أن
أكون مقروءا فى وطنى ، خاصة أن «العنف
والسخرية» هي أكثر أعمالى قربا الى
قلبى»

ولذلك فإن أقل ما نفعله اليوم أن نقدم
الترجمة الكاملة لهذه الرواية . ونحن نحتفل
بالعيد الثمانين ليلاد قصيرى .

إنها واحدة من الروايات التى تأخرت
ترجمتها إلى لغتها العربية ، رغم أنها يمكن
أن تغير خريطة الرواية العربية فى القرن
العشرين . ليس فقط لأنها تناولت
موضوعات شديدة السخونة والحساسية فى
كل العصور . بل أيضا للغة الأدبية الرفيعة،
البالغة الخصوصية التى يستخدمها
الكاتب .



البير قصيرى

● ولد فى القاهرة فى ٣
نوفمبر ١٩١٣ .

● تلقى تعليمه فى المدارس
الفرنسية بالقاهرة . وبدأ يكتب
القصة القصيرة . ثم الرواية
وترجمت بعض أعماله الى اللغة
العربية فى مجلة «التطور» .

● نشر مجموعته
القصصية الأولى «بشر نساهم
الله» عام ١٩٤٠ ، ثم روايته
«منزل الموت الأكيد» فى مصر
عام ١٩٤٦ .

● سافر الى فرنسا للإقامة
بأحد الفنادق الصغيرة . وهناك
نشر روايات قليلة العدد منها
«شحاذون ومعتزون» عام ١٩٥٥ ،
و«العنف والسخرية» و«كسالى
الوادی الخصب» عام ١٩٦٤
و«مؤامرة المهرجين» . وتلوث
أحداثها جميعا فى الاحياء
الشعبية المصرية .

● حصل على جائزة
الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٩٠
● تحولت أعماله الى أفلام
سينمائية فى مصر ، وفرنسا ،
واليونان ومنها «الناس الى
جوه» ، و«شحاتين ونبلاء» .

روايات الهلال تقدم

١٩٥٤

بقلم

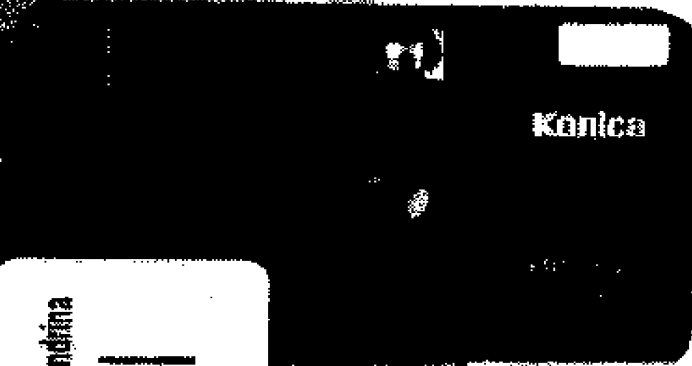
جميل عطية ابراهيم

تصدر : ١٥ نوفمبر سنة ١٩٩٣

كونيكا Konica



صكا مسيرات
أفندي
معاملي طبع وتجميع
شراطة قيد سيو



الوكيل

Bibliotheca Alexandrina



0206969

٩٦ ش احمد عرابي -
ت : ١٢ ٥ ٣٤٤٠٠ فاكس

شركة إسكافي

To: www.al-mostafa.com